الغساسنة
في شعر النابغة الذبياني

د. فضل عمار العماري
قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

طال الزمن والقدماء والمحدثون يدورون في حلقة مفرغة، مذبذبين بين نسبة النابغة تارة إلى الغساسنة، وتارة أخرى إلى المناذرة، بحيث أوجدوا علاقات له هنا، وعلاقات له هناك؛ علاقات حسنة، ثم مضطربة مع هؤلاء، وعلاقات صداقة ونجدة مع أولئك.

وهذا ما لا يكون أبداً فيما هو معروف من سيرة التاريخ العربي القديم، حيث يكون الانتماء قبليا كلية، وإقليميا كلية، وحيث تكون مساحة العفو والتسامح ضيّقة جدا في الدوائر السياسية القديمة.

وتجاوزًا عن تلك الأقوال المكرّرة حول هذه العلاقات، يمكن الإشارة إلى بعضها، فقد ذهب بروكلمان إلى جعل النابغة يتّصل سرًا بملوك غسان في دمشق، وهم أعداء اللخميين، فظن فيه النعمان بن المنذر الخيانة وعدم الوفاء، وغضب عليه، فهرب إلى الغساسنة(١). ولم يعرض بروكلمان النصوص التي تربط النابغة بالغساسنة على محك النقد.

ومن هذا قول العشماوي: "يأتلف العدوين في وقت واحد... غسان والحيرة... لكي يرضى عن نفسه كشاعر أجاد الرسالة وأداها"(٢).

---

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبدالحليم النجار (القاهرة: دار المعارف، ط الثانية، ١٩٦٨م)، ج١، ص٨٠.

(٢) محمد زكي العشماوي، النابغة الذبياني (القاهرة: دار المعارف، ط الثانية، ١٩٦٨م)، ص١٢٤.

وقوله أيضًا: "الصداقة بين بني ذبيان وملوك الحيرة كانت صداقة قديمة أصيلة، وكانت أشبه بتحالف قوي وارتباط وثيق يحرص عليه كل من الطرفين"(٣).

وتوصّل الدسوقي إلى نتيجة تقول: "ومع كل هذا الخير العميم لم نسمع للنابغة في هذه الحقبة التي قضاها مع النعمان بن المنذر شيئاً من المديح إلا القليل، ومن ذلك الدالية التي وصف فيها المتجردة"(٤).

لكنه قال، فشمل المناذرة: "اتصل النابغة الذبياني ببلاطي الحيرة والغساسنة، وكان لهذا الاتصال أثر كبير في شعره"(٥).

ولم تكن تلك النتيجة لتقنع الدسوقيَّ نفسه؛ فراح يتساءل: "هل كان ذلك سياسة منه حتى لا يغضب الغساسنة وهو شديد الحاجة إليهم، لكثرة ما يقع بينهم وبين قومه من مشكلات تدعوه إلى ساحتهم، فلو تورط في مدح النعمان ربما أغضبهم، وأغلق بذلك بابًا طالما ولجه؛ لينقذ أسرى قومه وحلفاءهم، ويعود مثقلاً بالهبات الفخمة والعطاء الوفير؟ أو أن ذلك كله عن أنفة منه وترفع، فلم يشأ أن يجعل ثمن صداقته للنعمان وغشيانه مجلسه ومؤاكلته ومنادمته مديحًا يسجل عليه الضعة، وهو من هو في قومه، ويرى أن النعمان في حاجة إلى مصانعته"(٦).

حتى إنه يقول، في ما لا يقبله منطق: "مع أنه انقطع للنعمان بن المنذر، فإن باب الغساسنة ظل مفتوحا له يغشاه في كل آونة"(٧).

---

(٣) المرجع السابق، ص١١٩.

(٤) عمر الدسوقي، النابغة الذبياني (القاهرة: دار الفكر العربي، ط السادسة، ١٣٧٤هـ/ ١٩٧٥م)، ص ١٧٤.

(٥) المرجع السابق، ص ١١١.

(٦) المرجع نفسه، ص ص ١٧٤- ١٧٥. وانظر: ص ص ٢٠٨- ٢١٠.

(٧) المرجع نفسه، ص٧٢. وانظر: تخبّطه، ص ص١٨٠-١٨٦، ١٩٢ -١٩٤، مع ملاحظة حديثه، ص١٧٥، عن قول حسان:

وأنا الصقر عند باب ابن سلمى   يوم نعمان في الكبول مقيم

وانظر: ديوان حسّان، تحقيق وليد عرفات (لندن: مط ستيفن أوستن وأولاده، ١٩٧١م)، ج١، ص٤٠، ج٢، ص ص٣٠-٣١.

وقال الراميني: "عمرو بن هند في شعر القبائل النجدية، وفي مقدمتها أسد وغطفان هو شخصية غسانية"(٨).

كانت تلكما النتيجتان الأخيرتان جديرتين بإعادة النظر في كل المرويات حول علاقة النابغة بالمناذرة، وهو ما لم يحصل، وإنما مضى القيل والقال، دون أن يتطوّر الموضوع، فينتقل إلى مواقف ثابتة، مقنعة، بدل هذا التراكم المعهود(٩).

فبدءا: ما الدليل على أن: "الصداقة بين بني ذبيان وملوك الحيرة كانت صداقة قديمة أصيلة"؟

لا يوجد دليل ألبتة! فهذه هي أشعار الجاهليين بين أيدينا، وهي تخلو خلوا تاماً من ذكر لأي اتصال بين ذبيان والمناذرة. ولم يصل نفوذ المناذرة قط إلى عمق ديار ذبيان مما يلي النَّقرة غرباً، حيث يتركّزون. وبالمقابل، فبين أيدينا شعر النابغة كله، لا يتوجّه في شيء منه - حسبما سنرى - إلى المناذرة، وهو الذي يفترض أن يكون سفيرا لقومه في بلاطهم. ولأن المسألة غامضة جعل ابن عاشور النابغة منقطعاً إلى المناذرة أبا عن جدّ(١٠)، فكان التضارب في المواقف جدّ كبير.

---

(٨) عرسان الراميني، عمرو بن هند في الشعر الجاهلي، أبحاث اليرموك، الأردن، م١٧، ع٢، ص ص ١٤٤-١٥٤.

(٩) ما أكثر الدراسات حول النابغة، وكلها تدور فيما دار فيه العشماوي والدسوقي؛ انظر على سبيل المثال: محمد حمّود، ديوان النابغة الذبياني (بيروت: دار الفكر اللبناني، ط أولى ١٩٦٦م)، ص ص٢٠-٣٦.

(١٠) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٦م)، ص١٤. وذكر أنه نقله عن الأغاني، والخبر ليس في الأغاني، وسنرى حقيقته في الغساسنة.

تداخل الأسماء:

ولنأخذ شعره بالتفصيل:

قال:

يا دار ميّة بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأبد

وتقدمتها: "قال يمدح النعمان بن المنذر". وفيها يقول:

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني   ولا قرار على زأر من الأسد

ولدينا هنا: النعمان بن المنذر، أبو قابوس(١١).

ويتكرّر هذا في قصيدته:

عفا ذو حُسًى من فرتنى فالفوارعُ   فجنبا أريك فالتِّلاعُ الدوافعُ

حيث يقول فيها:

وعيد أبي قابوس في غير كنهه   أتاني ودوني راكس فالضّواجع

وهنا يأتي كذلك، حسب توجيه القصيدة في الديوان:

أبو قابوس؛ أي: النعمان بن المنذر(١٢).

وكذلك:

أبلغ لديك أبا قابوس مألكة   الواهب الخيل والقينات والنَّعما

على أنه النعمان بن المنذر بن ماء السماء(١٣).

وكل هذا توجيه مقبول، حتى قوله في إحدى قصائده:

ألم أُقسم عليك لتُخبِرَنِّي   أمحمول على العرش الهُمام

---

(١١) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ط الثانية، ١٩٨٥م)، ص ص١٤-٢٨.

(١٢) المصدر السابق، ص ص٢٨-٣٩.

(١٣) المصدر نفسه، ص١٧١

وبعده:

فإن يهلِك أبو قابوس يهلِك   ربيع الناس والشهر الحرام
ونُمسك بعده بذُناب عيش   أَجَبَّ الظَّهر ليس له سنام

على أن أبا قابوس، هو النعمان بن المنذر، وجاءت تقدمتها: "بلغه أن النعمان ثقيل من مرض كان أصابه، حتى أُشفِق عليه منه، فأتاه النابغة، وكان النعمان يُحمَل في مرضه ذلك على سرير، ينقل ما بين العمر وقصوره التي بالحيرة"(١٤).

وهنا نلتقي قوله في قصيدة أخرى مماثلة:

وإن يرجع النعمان نفرح ونبتهج   ويأت معدّا مُلكُها وربيعها
ويرجع إلى غسان مُلك وسؤدُد   وتلك المنى لو أننا نستطيعها
وإن يهلِكِ النعمان تَعرَ مطيّةٌ   ويُلقَ إلى جنب الفِناء قطوعها
وتنحَطْ حصان آخر الليل نَحطَةً   تَقضقَض منها أو تكاد ضلوعها
على إثر خير الناس إن كان هالكا   وإن كان في جنب الفراش ضجيعها

وتقدمتها في الديوان: "يمدح النعمان بن الحارث الأصغر، وكان خرج إلى بعض متنزّهاته"(١٥).

وتعني عبارة: "وكان خرج إلى بعض متنزّهاته" ما تعنيه العبارة في التعليق السابق: "وكان النعمان يُحمَل في مرضه ذلك على سرير، ينقل ما بين العمر وقصوره التي بالحيرة".

وواضح من العاطفة، والأسلوب، والتراكيب في الأبيات، وتناسقها معا، أنها قيلت جميعا في شخصية واحدة؛ مما يجعل المرء يتأكّد بأن كل الأبيات في الملك الغساني، النعمان بن الحارث الأصغر،

---

(١٤) المصدر نفسه، ص ص١٠٥-١٠٦.

(١٥) المصدر نفسه، ص ص١٠٧-١٠٨.

ففيها قال:

ويرجع إلى غسان مُلك وسؤدُد   وتلك المنى لو أننا نستطيعها

ويأتي اسم النعمان مجرّداً، على أنه النعمان الغساني هذا، في قوله:

لقد قلت للنعمان يوم لقيته   يريد بني حُنّ ببرقة صادر(١٦)

وفي قوله، يرثي من اسمه النعمان:

يسير بها النعمان تَغلي قدوره   تَجيش بأسباب المنايا المراجل(١٧)

وبعده:

فإن تك قد ودعت غير مذمم   أَواريَّ مُلك ثبّتتها الأوائل
فلا تبعَدَن إن المنية موعد   وكل امرئ يوما به الحال زائل
فما كان بين الخير لو جاء سالما   أبو حُجُر إلا ليال قلائل
فإن تحيَ لا أَملَل وإن تمت   فما في حياة بعد موتك طائل
فآب مُصلّوه بعين جَليّة   وغودر بالجَولان حزم ونائل

إلى أن يقول:

قعودا له غسان يرجون فضله   وترك ورهط الأعجمين وكابل(١٨)

فإذا دقّقنا النظر مليّا، لم نعدم الربط بين القصائد الثلاث؛ فالذي كان عليلاً مريضا، في حالة مشرفة على الموت، هو النعمان الغساني، والذي كان: "يُحمَل في مرضه ذلك على سرير، ينقل ما بين..."، والذي: "كان خرج إلى بعض متنزّهاته" والذي مات أخيراً، هو الذي جاءت تقدمته في القصيدة: "وقال النابغة يرثي النعمان بن

---

(١٦) المصدر نفسه، ص٩٨.

(١٧) المصدر نفسه، ص١١٨.

(١٨) المصدر نفسه، ص ص١١٨-١٢٢. وجاء في حاشية ص ١٢٠: "أبوحُجُر: كنية النعمان بن الحارث، وقد مات موتا، ولم يُقتَل".

الحارث بن أبي شمر الغساني، وهو ابن حجر بن الحارث..." فأبو قابوس، النعمان، ليس هو النعمان بن المنذر، بل النعمان بن الحارث.

ولم يكن ارتباط النابغة بالملك الغساني ارتباط مصلحة ونفعية، ومداجاة سياسية، وإنما كان ارتباطه به - كما تشعرنا الأبيات كلها - ارتباطاً وجدانياً، إنسانياً، فهو تأثّر غاية التأثّر لمرضه، وهو حزين أشد الحزن لفقده.

أما أن يقول القول الأول:

ألم أُقسم عليك لتُخبِرَنِّي   أمحمول على العرش الهُمام

في النعمان بن المنذر اللخميّ، مع ما تحمل أبياته من فيض في العاطفة، واندفاع وراء استجلاء الخبر، فهو أمر لا يقبله الشعر الشفوي على الإطلاق، إذ لم يصل الأمر بالشاعر في ذلك العصر - وحتى عصر جرير والفرزدق، وأضرابهما - إلى الخدعة السياسية، وتزييف العاطفة؛ كان الشاعر صريحاً، إن غضب غضب، وإن رضي رضي، ولم يكن طلب المال غاية، وإنما محصّلة، فإذا ما خُدش ضميره، لم يُعن بالنتائج المترتّبة على ذلك جراء الإهانة أو الاستصغار.

وإضافة إلى ذلك - ومع أن العطاء كان محصّلة - كان الشاعر الشفوي يرى في الملك - الربّ، في المفهوم الوثني- رمزا للقيم التي يمدحه بها، ويشهرها بين الناس؛ ولهذا جاءت الأبيات الأخرى على منوال الأبيات التي قبلها:

وإن يرجع النعمان نفرح ونبتهج   ويأت معدًّا مُلكُها وربيعها

وحيث جاء النعمان مجردا من كنيته، أبي قابوس في الأبيات السابقة، والتي رثاه بها:

يسير بها النعمان تَغلي قدوره   تَجيش بأسباب المنايا المراجل

على أنه النعمان الغساني، كما نصّ على ذلك، فإن قوله:

ألم تر خير الناس أصبح نعشه على فتية قد جاوز الحي سائرا
ونحن لديه نسأل الله خُلده يردّ لنا مُلكا وللأرض عامرا
ونحن نرجّي الخُلد إن فاز قِدحنا ونرهب قِدح الموت إن جاء قامرا
لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا وأصبح جَدّ الناس يَظلَع عاثرا
ورُدّت مطايا الراغبين وعرّيت جيادك لا يُحفي لها الدهر حافرا(١٩)

وعند مقارنة هذه الأبيات بالأبيات الأخرى، في النعمان الغساني:

وإن يهلِكِ النعمان تَعرَ مطيّةٌ ويُلقَ إلى جنب الفِناء قطوعها
وتنحَطْ حصان آخر الليل نَحطَةً تَقضقَض منها أو تكاد ضلوعها
على إثر خير الناس إن كان هالكا وإن كان في جنب الفراش ضجيعها

نجد هنا: "خير الناس"، وهناك أيضاً: "خير الناس"، وهنا: تَعرَ مطيّةٌ ويُلقَ إلى جنب الفِناء قطوعها، وهناك: عرّيت، جيادك لا يُحفي لها الدهر حافرا، رسالة واحدة موجهة إلى شخصية واحدة، بتفكير واحد، وصورة واحدة، لا انقسام فيها، ولا تلاعب بها.

والرجل في كل الأحوال مشف على الموت، جاء في تقدمة هذه الأبيات: "قال... وذكر له أن النعمانَ عليل"(٢٠). وذلك؛ لأنه يقول فيها:

ألكني إلى النعمان حيث لقيته فأَهدى له الله الغيوث البواكرا

وربطوا بين هذه الأبيات والنعمان بن المنذر، ولم يربطوها بالنعمان الغساني، مع أنه ذكر النعمان فقط في الأبيات السابقة:

يسير بها النعمان تَغلي قدوره تَجيش بأسباب المنايا المراجل

---

(١٩) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٦٧.

إلا أن ذكره لغسان جعلهم يحددونه بالنعمان الغساني، لا اللخمي، بينما وجّهوا الأبيات الأولى نحو النعمان بن المنذر، أبي قابوس:

فإن يهلِك أبو قابوس يهلِك   ربيع الناس والشهر الحرام

وهذا ما لا يكون أبداً في سياق الأحداث، واتّساق العواطف. كان النابغة - إذن - ذا صلة وثيقة بالنعمان الغساني، فهو "الهمام" في قوله الأول:

ألم أُقسم عليك لتُخبِرَنِّي   أمحمول على العرش الهُمام

وهو "الهمام" في قوله الآخر، في قصيدة يرثيه بها، كما جاء في بعض نسبتها فيه: "قل للهمام وخير القول أصدقه، والدهر يومض بعد الحال بالحال"(٢١). هذا من حيث العاطفة، عاطفة من يترقّب رجلاً مشفياً على الموت، وعاطفة نحو رجل بات فقيداً، ولا يمكن تزييف العاطفة، لتصبح هي نفسها في هذا وذاك، وأكثر من ذلك أن تتركز في فقيد واحد، وليس مختلَفا عليه؛ أي: هو النعمان الغساني، إذ لم يرِث النعمان اللخمي، كما في الديوان.

ولو تأمّل من يدرس شعر النابغة، فقالوا ما قاله الدسوقي سابقاً: "ومع كل هذا الخير العميم لم نسمع للنابغة في هذه الحقبة التي قضاها مع النعمان بن المنذر شيئاً من المديح إلا القليل، ومن ذلك الدالية التي وصف فيها المتجردة" لوجدوا أن ما سمّوه اعتذاريات النابغة للنعمان ابن المنذر اللخمي يحمل فيضاً من العاطفة والتقدير والمديح الذي لا يمكن أن يصدر من رجل متملّق أوخائف، وإنما يصدر من شاعر واثق مما يقول، معتقد فيه، مؤمن به، وهذه الأقوال تنطبق كلها على أقواله في الغساسنة التي خلّدها ديوانه، بينما لا يوجد منها شيء في ذكر المناذرة، وهذا كان يكفي لتحويل القضية كلها في صالح الغساسنة.

---

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

ارتباط النابغة بالملوك الغساسنة:

فإذا انتقلنا إلى وضع آخر، وجدناه لا يفارق الغساسنة، بل يلتصق بهم، فيقول:

ورب بني البَرشاء ذُهل وقيسِها   وشيبان حيث استبهلتها المناهل

وجاء في شرحه: "شيبان، وذهل، وقيس، بنو ثعلبة... ومعنى: استبهلتها: أخرجتها، وفاضت بها، وأقامت بها مبهلة؛ أي: مهملة مخلاّة؛ والمناهل: المشارب. يريد أن النعمان كان يغير عليهم حيثما حلّوا من مواضع المياه، وأهملوا فيه أموالهم وأنفسهم". ومعروف أن: "شيبان، وذهل، وقيس، بنو ثعلبة" هم من أتباع المناذرة، لا الغساسنة، وهم حلفاؤهم، الخاضعون لسيادتهم، فلا يغيرون عليهم هكذا، اعتداء مستمرا، وانتهازا لغرتهم، لغير جريرة، وإلا فقدوا السيطرة عليهم، وثاروا عليهم باستمرار.

وإذن، فالمغيرون هم الغساسنة، وليس المناذرة، والمعتدي ملك غساني، وهذا ما تؤكده تقدمة القصيدة نفسها: "يرثي النعمان بن الحارث الغساني..."، وكان فرح هؤلاء كبيرا بموته، حتى قال:

فلا يهنئَ الأعداء مصرع ملكهم   وما عَتَقت منه تميم ووائل(٢٢)

وإذا كان هذا واضحاً جليًّا، فإنه يقول:

ولكن ما أتاك عن ابن هند   من الحزم المبيَّن والتَّمام

وبعده:

ومغزاه قبائل قائظات   على الذِّهيوط في لجب لُهام

وهذا - بطبيعة الحال - لن ينصرف إلى المناذرة، بل إلى الغساسنة، فهم الذين يمدحهم الآن ذلك المديح، غير أن الديوان يقول: "يمدح

---

(٢٢) المصدر نفسه، ص ص ١١٥- ١١٨.

عمرو بن هند، وكان غزا الشام بعد قتل المنذر، أبيه"، وتفيدنا هذه العبارة - على الأقل - في بيان خطأ الاعتماد على الشروحات، والوثوق بها، كما كان يجيء في تقدمة بعض القصائد التي وجّهوها نحو المناذرة، ولا سيّما النعمان بن المنذر اللخمي.

ومع ذلك، ففي الديوان، عبارة أخرى تقول: "قال أبو عبيدة: قال هذه القصيدة لعمرو بن الحارث الغساني، في غزوته العراق"؛ أي: هي غزوة كبقيّة غزواته التي فرحت بالتخلّص منها "تميم ووائل"، كما قال، فابن هند هنا، ليس هو عمرو بن هند، وإنما عمرو بن الحارث الغساني؛ أي: كان النابغة في كل الأحوال شاعر الغساسنة، ولم يكن شاعر المناذرة.

وليست تقدمة القصيدة بمجدية، إذ لابد من النظر في الشعر نفسه، فهو يقول:

على إثر الأدلة والبغايا   وخَفق الناجيات من الشآم

فالغازي قادم من "الشآم"، وليس من العراق، وهذا ما أثبته المحقق في حاشيته: "قوله: من الشآم، يدل على أنه يمدح عمرو بن الحارث الغساني" وحتى لو كانت القراءة مصحفة، حسب الرواية الأخرى التي ذكرها المحقق: "من السآم"، أي: الملل والكَلال، فإن الغازي شآمي، غساني، يقول هنا:

فدوَّخت العراق فكل قصر   يُجَلَّلُ خندق منه وحام

أما قوله:

فأوردهن بطن الأَتْم شُعثا   يَصُنَّ المشي كالحَدأ التُّؤام(٢٣)

فيعني: الغساسنة، وليس المناذرة، كما يدل عليه سياق الشعر، ولا سيما البيت السابق.

---

(٢٣) المصدر نفسه، ص ص ١٣٠- ١٣٦.

وربما جاء من يقول: إن هذه الأبيات في الحارث، وليس في عمرو، وأن ابن هند هو الحارث نفسه، وهذا جائز؛ لأنه يقول في إحدى قصائده:

إن يسلم الحارث الحراب تعترفوا   جيشا مغيرا على ثهلان أو خطرا

وبعده:

يوما حَليمة كانا من قديمهم   وعين باغ فكان الأمر ما ائتمروا
يا قوم إن ابن هند غير تارككم   فلا تكونوا لأدنى وقعة جَزرا
إني أخاف عليهم صول ذي لِبَد   في عارض لابن هند يُمطر الشررا(٢٤)

وبهذا تتوجه كل المدائح في الغساسنة، لا المناذرة، وعلى وجه الخصوص في النعمان بن الحارث الغساني، الذي كان يكِنّ له النابغة تقديرا شخصيا خاصا، والذي كان يغير على أراض هي تابعة تقليدياً للمناذرة، "ثهلان"، ويصبح أبو قابوس، ليس هو النعمان بن المنذر، بل النعمان بن الحارث الغساني نفسه، والذي قال فيه:

تتوجه كل المدائح في الغساسنة، لا المناذرة، وعلى وجه الخصوص في النعمان بن الحارث الغساني

إن امرءًا يرجو الخلود وقد رأى   سرير أبي قابوس يغدى به عَجَزْ
وكنتَ ربيعا لليتامى وعصمة   فملك أبي قابوس أضحى وقد نَجِز(٢٥)

وهذا السرير المحمول عليه، هو ذلك السرير الذي كان يدار به في متنزهاته، وهذا الرثاء هو الرثاء الذي سمعناه في النعمان الغساني. مع العلم بأن النعمان اللخمي مات مقتولاً، ولم يمت عليلاً.

أما أن النابغة لم يرتبط إلا بالغساسنة، وبالنعمان بن الحارث الغساني منهم، وأنه هو الذي كان عليلاً، ثم مات في علّته تلك، فرثاه النابغة رثاء

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٦، وانظر: ص١٩٦.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

الصديق والمحب، ولم يكن ذا ارتباط بالمناذرة قط، أو بالنعمان بن المنذر منهم تحديداً، فقد جاء في الديوان ما نصه عن النابغة: "كان النعمان بن الحارث الغساني... وكان منقطعا إليه، فلما مات النعمان بن الحارث، رثاه النابغة، وانقطع إلى عمرو بن الحارث، أخي النعمان"(٢٦).

وارتباط النابغة بالغساسنة ارتباط قديم، حتى إن ابن سعيد يجعل قول النابغة:

لعمرو علينا نعمة بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب

في النعمان بن عمرو بن المنذر، ويفصل هذا ثمانية ملوك، عن الآخر: أبو كرب، النعمان بن الحارث، الذي يقول فيه:

بكى حارث الجولان من فقد ربّه   وحوران منه خاشع متضائل(٢٧)

وهذا وحده كاف لجلاء ذلك الغموض الذي أحاط بالقضية، فالانقطاع إلى النعمان لم يكن في زمن محدود، بل كان انقطاعاً طويلاً، ثم تلته صحبته لابنه عمرو، وكان أيضاً منقطعاً إليه، متواصلاً معه.

---

(٢٦) المصدر نفسه، ص٧٥. وهذا ينفي أية علاقة للنابغة بالمثل، وحتى بالشعر المنسوب له، المتضمن قوله: "ما وراءك يا عصام". انظر: ابن عاشور، ديوان النابغة، ص ص٢٣٢-٢٣٣.

(٢٧) نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن سعيد، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبدالرحمن (عمّان: جمعية عمال المطابع الأردنية، ١٩٨٢م)، ج١، ص ص٢٠٢-٢٠٤. وانظر: ديوان النابغة الذبياني، ص١١٩. وهذا هو الصحيح، لا ما قاله عنه أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م)، ج ١، ص ١٦٤: "كان مع النعمان بن المنذر، ومع أبيه وجده، وكانوا له مكرمين"، فهذا القول كان ينبغي أن ينصرف إلى الغساسنة، لولا التوجيه الخاطئ، نجِد هذا في قول النابغة نفسه، في مدح النعمان الغساني، الذي يخلط هنا باللخمي. ديوان النابغة الذبياني، ص١٣٦:

أبوه قبله وأبو أبيه   بنَوا مجد الحياة على إمام

واللافت للنظر أن ابن سعيد حين تحدّث عن ذلك التواصل، عاد، فقال، ص٢٨: النعمان بن المنذر، أبو قابوس...: صاحب النابغة الذبياني، وله فيه الأمداح الجليلة والاعتذارات".

ومن الأدلّة التي يمكن إضافتها إلى ذلك التقدير المتبادل بين الملك، النعمان وشاعره، أنه يشفع عنده في أسارى من أسد وفزارة، فيعطيه إياهم، ويكرمه، فيقول فيه:

إني كأني لدى النعمان خبّره   بعضُ الأوُدّ حديثا غير مكذوب

وهو هنا النعمان بن الحارث بن أبي شَمِر، كما تدل عليه الحادثة بشرح الديوان نفسه. وكما قال موضحاً:

قاد الجياد من الجولان قائظة   من بين منعلة تُزجى ومجنوب(٢٨)

وفي ضوء ذلك، فإن قوله:

إلى الملك النعمان حتى لقيته   وقد نُهكت أصلابُها والجَناجن(٢٩)

هو في النعمان بن الحارث.

فإذا قبلنا هذا، ولا مجال لرفضه، سواء من واقع الشرح، أو من واقع القصِيدة البائية، فإن قوله:

من مبلغ عمرو بن هند آية   ومن النصيحة كثرة الإنذار

ليست، كما جاء في شرح الديوان: "قال النابغة لعمرو بن هند، الملك، ينصحه فيها"، بل في عمرو بن الحارث، فهو الذي كان يهاجم هذه المناطق التي يعدّها من مناطق نفوذه، وهذا الخلط هو الخلط نفسه في القول الذي مر آنفا: "يمدح عمرو بن هند، وكان غزا الشام بعد قتل المنذر، أبيه"، وإنما هو عمرو بن الحارث.

وربما أشكل قول النابغة هنا:

لا أعرفنّك عارضا لرماحنا   في جُفّ (تغلب) واردَ الأمرار

---

(٢٨) ديوان النابغة الذبياني، ص ص٤٩-٥٠.

(٢٩) المصدر السابق، ص١٩٧.

وما هذا إلا تصحيف، فـ "تغلب" لم تكن على وفاق مع المناذرة، حتى يأتي في الديوان أنهم: "أنصار لخم بالحيرة"، وإنما هي، بحسب الرواية الأخرى في الديوان كذلك: "ثعلب" وبحسب شرحها أيضاً: ثعلبة بن سعد بن ذبيان، فرخّم في غير النداء(٣٠). وهؤلاء هم أتباع الغساسنة من ذبيان، وليسوا من ربيعة، وسنرى أن هذه المنطقة ظلت عصيّة على المناذرة، سواء في انتمائها السياسي، أو خضوعها الإقليمي، بينما كانت مسرحاً لحملات الغساسنة، وأكثر اتصالاً بهم. فهذا هو عمرو بن هند الغسانيّ، وليس اللخميّ.

ودليل آخر يؤكّد هذا هو أن النابغة يقول في الأبيات:

لا أعرفنّك عارضا لرماحنا في جُفّ (تغلب) واردَ الأمرار

و"وادي الأمرار" ليس بالشام حتى يغزوه، وإنما في بلاد بني ذبيان.

وما هذه الأبيات إلا جزء من الرّائيّة المبعثرة، والتي يقول فيها:

وعيّرتني بنو ذبيان خشيته وهل عليَّ بأن أخشاك من عار

أي: هي جزء مما قاله حول "(ذو) أُقُر":

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر وعن تربّعهم في كل أصفار

فيكون ابن هند هذا هو النعمان بن الحارث الغساني، لا اللخمي. وليس هذا إقحاماً على التفسير.

فالنابغة نفسه يقول للغساسنة:

هذا غلام حسن وجهه مستقبِل الخير سريع التّمامْ
للحارث الأصغر والحارث الـ أعرج والحارثِ خير الأنام
ثم لهند ولهند وقد أسرع في الخيرات منه إمام
ستّةُ آبائهم ما هم همْ خير من يشرب صوبَ الغمامْ(٣١)

---

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(٣١) المصدر نفسه، ص١٦٦.

فالانتساب إلى هند ليس قاصراً على المناذرة، بل كان مشمولاً به الغساسنة أيضاً، كلٌّ ينتسب إلى هند، في آباء متعددين: (ثم لهند ولهند وقد)، والمقصود هنا هو النعمان بن الحارث الأصغر، كما يقول الديوان(٣٢). وجاء في الديوان: "قال النابغة لعمرو بن المنذر حين قُتل أخوه، المنذر بن المنذر".

إني أظن ابن هند غير تارككم   بالقُرنتين ولما تُفزَع النَّعَم
حتى تراءَوه معصوبا بلِمّته   نقع القنابل في عرنينه شمم
قد خلّت الحرب عنه فهو يُسعرها   كالهندوان حلّى حدَّه الأَدَم
شهاب حرب يدين الظالمون له   في كل حي له البأساء والنعم(٣٣)

فهذا تهديد ووعيد، فهل يهدد ويتوعّد الغساسنة؛ لأن المقتول لخميّ؟ تقول قصيدة أخرى:

يوما حليمة كان من قديمهم   وعين باغ فكان الأمر ما ائتمرا
يا قوم إن ابن هند غيرُ تارككم   فلا تكونوا لأدنى وقعة جزرا(٣٤)

فقوله: "ابن هند غير تارككم" في الروايتين ينصرف إلى "ابن هند"، غير أن الرواية الثانية أكّدت أن "ابن هند" هذا من الغساسنة، لا من المناذرة بدليل نسبة "يوم حليمة" و"عين باغ" (أباغ) إليه، فهذا هو النعمان الغسانيّ، لا عمرو بن هند اللخميّ، مضرّط الحجارة، كما نُسب له بيتان في الرد على النابغة في قافية رائيّة(٣٥)، مما يبيّن أن الحديث كان يدور حول موضوع (ذو أقر"، وهو ما يهمّ الغساسنة، لا المناذرة.

---

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) المصدر نفسه، ص١٩٦. وكذا، النسبة إلى "محرّق"، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق حنا ناصر الحتّي (بيروت: دار الكتاب العربي، ط أولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص١٨٧.

(٣٤) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق الحتي، ص٧٩. ونصّ الحتي في حاشيته على أنه النعمان بن الحارث الغساني.

(٣٥) ديوان النابغة الذبياني، ص١٦٩.

وليس هذا فحسب، فالأغاني يذكر عن حسّان: "خرجت إلى النعمان بن المنذر"، ولم يقدم حسان ألبتة إلى المناذرة، وعلى الأخص النعمان بن المنذر، بالرغم من الزجِّ به معه، وإنما كان يقدم على الغساسنة فقط، وهو ما جاء في رواية أخرى من أنه قدم على الحارث الغساني، واجتمع بالنابغة عنده. ومن بعض هذه الأخبار جاء الخلط والتشتيت، وكان ينبغي أن ينصرف إلى النعمان الغساني(٣٦)، يقول حسّان:

أكلِّفها أن تُدلج الليل كله   تروح إلى باب ابن سَلمى وتغتدي(٣٧)

كما يقول:

إن خالي خطيب جابية الجو   لان عند النعمان حين يقوم

وبعده:

وأنا الصقر عند باب ابن سلمى   يوم نعمان في الكبول مقيم(٣٨)

ويقول أيضاً:

أنا الزائر الصقر ابن سلمى وعنده   أُبَيٌّ ونعمان وعمرو وواقد(٣٩)

فهذا كله في "النعمان"، "ابن سَلمى" الغسّاني. أما النعمان اللخمي عنده فهو أبو قابوس:

وحارثة الغطريف أو كابن منذر   ومثل أبي قابوس رب الخورنق(٤٠)

---

(٣٦) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (بيروت: دار الثقافة، ط الرابعة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ج١١، ص ص٢٤-٢٥، ٣٢ -٣٥. وانظر: ديوان حسان، ج٢، ص ص٣٠-٣١.

(٣٧) ديوان حسان، ج١، ص٢٥.

(٣٨) المصدر السابق، ص٤٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ص٤٩.

(٤٠) المصدر نفسه، ص١٨٥.

وبهذا، يكون النابغة الذبياني منقطعاً إلى الغساسنة فقط؛ مدافعاً عنهم، واقفاً في صفهم(٤١)، فهو يقول ردّا على من يتهجم على الغساسنة:

حربتَ أبيض يستسقى الغمام به   من آل جفنة في عز وفي كرم(٤٢)

كان الغساسنة وحدهم هم الذين يمدحهم النابغة، فهو الذي يقول فيهم جميعاً، وهو ما أثبته الديوان:

لا يبعد الله جيرانا تركتهم   مثل المصابيح تجلو ليلة الظُلَم
لا يَبرَمون إذا ما الأفق جلّله   برد الشتاء من الأمحال كالأدم
هم الملوك وأبناء الملوك لهم   فضل على الناس في اللأواء والنِّعم
أحلام عاد وأجساد مطهرة   من المَعَقّة والآفات والإثم(٤٣)

نفوذ الغساسنة في مناطق ذبيان:

ولا يقتصر الأمر على هذا، فالغساسنة كانوا قد وضعوا أيديهم على مناطق يحمونها في ديار ذبيان، جاء في الديوان، وإن يكن هذا وحده دليلاً كافياً على منطقة حماية الغساسنة:

"كان النعمان بن الحارث الغساني احتمى ذا أُقُر: وهو واد مملوء حِمضاً ومياهاً"(٤٤).

---

(٤١) الأصفهاني، الأغاني، ج١٥، ١٢٤. ومرّت الأبيات التي ذكر فيها عدد آبائه: "للحارث الأكبر"؛ ويؤكّد ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص١٥٩، ١٦٤-١٦٥، خبرَ لقاء حسّان بالنابغة، في بلاط النعمان الغساني. والوضع نفسه يمكن توجيهه في شعر الأعشى. ديوان الأعشى، تحقيق محمد محمد حسين (القاهرة: مط النموذجية، ١٩٥٠م)، ص ص١٨٩-١٩٣.

(٤٢) ديوان النابغة الذبياني، ص٢٠١.

(٤٣) المصدر السابق، ص١٠١.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٧٥.

وحدد الجاسر:

"(ذو) أُقُر: جبل... و... واد... من حرّة فدك الشرقية... تقع فيه الحُلَيفتان"(٤٥).

والغريب أن "أقر" هذا من مواطن بني مرة بن يربوع، قوم النابغة، ففيها كانت ذكرياته، يقول:

أرى البَنانة أقوت بعد ساكنها   فذا سُدَير وأقوى منهم أُقر(٤٦)

وهذا يعني - بما يقطع التردد - أن هذه المنطقة منطقة امتداد نفوذ سياسي للغساسنة، لا للمناذرة.

ويدخل في هذا، وضمن هذه المنطقة، "الملح" و"الأمرار"، في قوله أيضًا:

حتى استغاث بأهل الملح ماطعِمت   في منزل طعم نوم غير تأويب

وبعده:

وما بحصن نعاس إذ تؤرقه   أصوات حيّ على الأمرار محروب(٤٧)

---

(٤٥) حمد الجاسر، شمال المملكة (الرياض: دار اليمامة، ط أولى، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ج١، ص ص١١٣-١١٤. وانظر: شهاب الدين، ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، مادة "أقر".

(٤٦) ديوان النابغة الذبياني، ص ١٨٤.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ص٥٠-٥١.

حقّا اشترك بنو مرة بزعامة سنان بن أبي حارثة من ذبيان، في حرب يوم شعب جبلة، نصرة لتميم، وعداوة لبني عامر، وحلفائهم بني عبس، كما اشترك المناذرة والجون الكلبي (وليس الكندي)، وهو من رعايا المناذرة، طمعا في بني تميم وبني عبس، غير أن هذا التجمّع القبلي لا يعني أن بني ذبيان يخضعون للمناذرة، وإنما هم جاؤوا من ديار بني ذبيان الخارجة عن سيطرتهم، واشتراكا في معركة عامة، وليس تحت إمرة المناذرة. انظر: عمر بن عبدربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة: مط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥م) ج ٥، ص ص١٤١-١٥٠.

أما أن يقول الدسوقي: "كانت قبائل غطفان، وأشهرها عبس وذبيان، تقيم في الشمال الغربي من نجد بين وادي القرى غربا، وجبلي طيء: أجأ وسلمى شرقا، ووادي السرحان في بادية السماوة شمالا، ووادي الشربة جنوبا. وهذا الجزء من الجزيرة العربية يقع في صحراء النفود، وليس في الصحراء العربية عامة أنهار جارية، ولكن بعض بحار أو نهيرات صغيرة، قل منها ما يدوم ماؤه، ومن ذلك وادي الشربة في ديار غطفان. وماؤه ملح لا يصلح للشرب"(٤٨).

ففيه أخطاء علمية خطيرة؛ فأولا، لم تكن ديار غطفان غرب وادي القرى، وإنما شرقه، ولم تقع شرق أجأ، فشرق أجأ لطيئ، ولم تكن كذلك في شرق سلمى، فشرق سلمى لأسد، وهم فروع من أسد غير أن أسد حلفاء فزارة، القاطنين معهم، والذين اختلطوا بهم، وإن كانوا على وفاق مع غطفان عامة.

ثم إن وادي السرحان ليس في بادية السماوة، فبادية السماوة أسفل منه في جهات عرعر حتى تدمر. ولم تكن غطفان في هذه المنطقة، وإنما كانت تحت سيطرة كلب، أنصار الغساسنة الموثوقين جداً.

ولا يوجد واد باسم: الشربة، وإنما الشريّة منطقة تشمل جزءاً من أعلى القصيم حتى جهات الحناكية.

---

(٤٨) الدسوقي، النابغة الذبياني، ص٧٩. وانظر: العشماوي، النابغة الذبياني، ص٢٢. ولم يأت في الشعر الجاهلي وصف للشربة بأنها واد، قال عنترة: أرض الشربة شعب وواد، فهي منطقة وديان وشعاب؛ أي: هي المنطقة الواقعة بين وادي الرمة والجريب، فتشمل بذلك ما يأتي أعلى وادي الرمة شمالاً حتى جنوب ضرية. انظر: ديوان عنترة تحقيق عبدالمنعم عبدالرؤوف شلبي (القاهرة: شركة فن للطباعة، د. ت)، ص٥-٨، ٥٢. وانظر: أبوعبيدالله بن عبدالعزيز البكري، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط أولى، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) "الشربة"؛ ياقوت، معجم البلدان، "الشربة". وانظر أيضاً: حنا نمر، النابغة الذبياني (بيروت: مط البيان، ط أولى، د. ت)، ص٥٨، فهو يكرّر مقولة الدسوقي.

يقول زهير، في وصف طبيعتها:

بأودية أسافلهن روض   وأعلاها إذا خفنا حصون
نحُلّ سهولها فإذا فزعنا   جرى منهن بالآصال عُون(٤٩)

وأما ما يقال عن اتصال الحارث بن ظالم المريّ بالمناذرة، فيقابله لجوؤه إلى يزيد بن عمرو الغساني(٥٠).

على أن أمر الحارث بن ظالم تعرّض للطّمس، كما تعرّضت علاقة النابغة بالمناذرة؛ ذلك أن هذا الأمر لا يعود مقبولاً في ظلّ الخبر الآتي: "التقى خالد بن جعفر والحارث بن ظالم بن غيظ بن مرة بن سعد بن ذبيان عند الأسود بن المنذر، فجعل خالد يقول للحارث بن ظالم: أما تشكر يدي عندك أن قتلتُ عنك سيّد قومك زهير، وتركتك سيّدهم"(٥١).

وبعد ذلك مباشرة قتله الحارث بن ظالم، بينما نجد أن في "يوم حراض": "حُراض: واد لبني يربوع بن بغيض بن مرّة، رهط الحارث بن ظالم، وهناك أغار عليهم خالد بن جعفر بن كلاب؛ وقال الحارث، وقد عيّره خالد ذلك..."(٥٢).

وليس هذا فحسب، بل إنهم يقولون عن "يوم عاقل": "لذبيان على بني عامر، فيه قُتِل خالد بن جعفر ببطن عاقل"(٥٣). بينما أصل الحكاية أن الحارث قَتَل خالداً في قُبّته، في جوار الملك الأسود بن المنذر اللخمي(٥٤).

---

(٤٩) ديوان زهير بن أبي سلمى (القاهرة: دار الكتب، ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م)، ص١٨٥.

(٥٠) ابن عبدربه، العقد الفريد، ج ٥، ص١٣٨.

(٥١) شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة: دار الكتب، ط أولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج١٥، ص٣٤٨.

(٥٢) البكري، معجم ما استعجم، "حراض".

(٥٣) ابن عبدربه، العقد الفريد، ج٥، ص١٣٧.

(٥٤) النويري، نهاية الأرب، ج١٥، ص٣٤٩.

وهو ما دَفَع الأسود إلى مطاردته(٥٥)، وأين الحيرة، بالعراق، من "عاقل" (العاقلي)، بالقصيم، وبينهما مئات الكيلومترات؟.

ويتواصل تناقض الخبر، حين يجعلون الأسود يعجز عن الوصول إلى الحارث بالجبلين: أجأ وسلمى، عندما استجار بطيئ(٥٦)، وهو المكان الأقرب، والأسهل، والأيسر من الوصول إلى غرب بلاد طيئ وجنوبها الغربي، حيث بنو أسد التي جعلوه يصل إليها بعد مقتل ابنه شرحبيل(٥٧)، وأخيرا يجعلون فزارة المتمنِّعة في غرب الشَّرَبَّة، تتنازل للأسود(٥٨).

وفي الخبر ما يفسده جدّا، فالأسود لم يملك، ومملكة الحيرة حتى في عهد النعمان بن المنذر كانت في حالة تضعضع، إن دلّ عليه عجزها عن الوصول إلى الجبلين، فهي عن غربها وجنوبها الغربي أعجز.

والخبر بعد ذلك، لا يربط بين قتل ابن الأسود والغزو في رواية أبي عبيدة، ويجعل الحارث يلجأ إلى بني تميم، بعد أن رفض قومه قبوله لجريرته، وجعَل الملكَ، الملكَ النعمانَ، لا الأسود، ثم يقع يوم "رحرحان"، من جهات الحناكيّة الشرقية، ولا دخل للمناذرة فيه، ولم تشترك فيه فزارة، أو يربوع رهط الحارث بن ظالم(٥٩).

وصحّة الخبر ينبغي أن يكون مقتل خالد بن جعفر في يوم "عاقل"، بين ذبيان وغنيّ، رهط خالد بن جعفر، وصحّته أيضا أن إغارة المناذرة لم تتجاوز الحدود السياسية للمناذرة إلى غرب النَّقرة، وأن

---

(٥٥) المصدر السابق، ص٣٥٤.

(٥٦) المصدر نفسه.

(٥٧) المصدر نفسه.

(٥٨) المصدر نفسه، ص٣٥٥.

(٥٩) أبوعبيدة معمر بن المثنى، كتاب أيّام العرب، دراسة عادل جاسم البياتي (بغداد: مط الجاحظ، ١٩٧٦م) ص ص٤٩٠-٥١١.

الخبر يعود إلى عمرو بن هند، الملك القويّ، في إغارته على تميم بنواحي "أوارة"، في نجد، والتي تجعله الدراسات الحديثة خطأ بالكويت، تبعا لما قاله ياقوت، وهو خبر يختلط بيوم أضاخ الذي يؤكد أن اليوم لم يتجاوز تلك الحدود السياسية، والقصص الثلاث متشابهة متداخلة(٦٠).

ومن ناحية أخرى، فلو نظرنا في كل مواضع أطلال النابغة، فلن نجد واحدا منها يخرج تلك المنطقة التي ألمحنا إليها، ولنأخذ أحدها فقط، وهو قوله: "عفت روضة الأجداد منها فيثقب"(٦١).

وهي التي يحددها الجاسر:

"روضة الأجداد: شرق خيبر"(٦٢). كما يحدد: "يثقب: في الشمال الشرقي من قرية الحائط (فدك - قديما)"(٦٣).

مجال هروب النابغة:

وأمر آخر له أهميّة في الكشف عن حقيقة علاقة النابغة بالمناذرة، فالنابغة عندما واجه تهديد الغساسنة لم يلجأ إليهم، وكان في ذلك الوقت في أمسّ الحاجة لهم، غير أنه فر إلى أهله، بني عذرة، في جهات شمالي وادي القرى، الذين هزموا الغساسنة ذات

---

(٦٠) انظر في هذا: ديوان الطرماح بن حكيم، تحقيق عزة حسن (بيروت: دار الشرق العربي، ط الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ص ١٢٥؛ ديوان الأعشى، ص١٣؛ البكري، معجم ما استعجم، "أوارة"؛ "عاقل"، ياقوت، معجم البلدان، "أوارة"؛ حمد الجاسر، المنطقة الشرقية (الرياض: دار اليمامة، ط أولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج١، ص١٧٩؛ محمد بن ناصر العبودي، معجم بلاد القصيم (الرياض: دار اليمامة، ط أولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج١، ص ص٣٥٨-٣٥٩. وإن دلّ الخبر على صراع سياسي حول الحدود السياسية بين الغساسنة والمناذرة في الأطراف الفاصلة بينهما، في نواحي الجرير. وانظر عن نفوذ المناذرة في نجد على سبيل المثال: ديوان الأعشى، ص٢٣٧؛ ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق إحسان عباس (الكويت: مط الحكومة، ١٩٦٢م)، ص ص٢٦١-٢٦٥.

(٦١) ياقوت، معجم البلدان، "يثقب".

(٦٢) الجاسر، شمال المملكة، ج ٢، ص ٦١١.

(٦٣) المرجع السابق، ج٣، ص١٤٠٠.

مرة(٦٤)، وها هو بدر بن حُذار يعيّره ذلك، فيقول:

اضطرّك الحِرز من ليلى إلى بَرَد   تختاره معقلا عن جُشّ أعيار(٦٥)

يقول له: "اضطرك أن تنزل الحرز من حرّة ليلى، وهي حرة النار؛ أي: نزلت بَرَداً، وتركت الموضع الذي كنت تزعم أنه حِرز، فنزلت مصحرا، ولم تنزل الحرز".

وهذا يبيّن لنا أيضاً موطن النابغة، الذي يأتي في قلب حرة اثنان "حرة ليلى" التي تركها هاربا عنها. وإذا كانت هذه هي حال النابغة، فإنه حين يقول:

وعيد أبي قابوس في غير كنهه   أتاني ودوني راكس فالضواجع

و"راكس" و"الضواجع"(٦٦) من جهات الحناكية الشمالية الشرقية، فإنه لم يكن مطارداً من قِبَل المناذرة؛ أي: من أبي قابوس، النعمان بن المنذر؛ لأنه في مثل هذا الوضع سيتّجه إلى "برد": شمالي وادي القرى، على الأقل، حيث عذرة، أو سينطلق إلى الغساسنة، والأولى أن يختبئ في حرّة "ليلى" (اُثنان)، حيث حرزه المعهود، فلماذا ابتعد هذا الابتعاد إلى الجنوب الشرقي من دياره؟ لقد كان النابغة مطارداً من قِبل الغساسنة، وهذا يثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه لم يكن يفكّر أصلاً في اللجوء إلى المناذرة، فهم خصومه، وخصوم قومه، وخصوم أولئك الذين ارتبط بهم أقوى ارتباط؛ أي: إن أبا قابوس النعمان، هو النعمان بن الحارث، وليس سواه، وإن الذين يطاردونه هم الغساسنة.

---

(٦٤) ديوان النابغة الذبياني، ص٩٨.

(٦٥) المصدر السابق، ص٧٩. وانظر عن تحديد هذه المواضع، الجاسر، شمال المملكة، ج١، ص ١٧٩. "برد: جنوب شرق تيماء"؛ "ليلى" (حرة اثنان، أو حرّة هتيم): شمال الحائط، ص١٤٥؛ "جشّ أعيار": غير بعيد عن حرة اثنان، ص٣٢٤.

(٦٦) "ضاجع": واد، أسفل حرة بني سليم (حرّة رهاط)، انظر، ياقوت، معجم البلدان، "ضاجع"؛ و"راكس": واد بين "ماوان" و"الجريب".

جاء في الديوان: "وقال النابغة يمدح عمرو بن الحارث الأعرج... حين هرب إلى الشام، لما بلغه سعي مرة به إلى النعمان، وخافه"(٦٧).

وهذا هو التصرف الطبيعي الذي كان عليه أن يفعله، في مثل تلك الحالات - لو حصل - بدلا من ذلك الضياع والغربة والخوف، الأمر الذي يلغي إلغاءً تلقائياً تلك العلاقة بالمناذرة.

أما ما لا يقبله عقل، فهو أن يقول:

وحلت بيوتي في يَفاع ممنّع   تخال به راعي الحَمولة طائرا
تزُلّ الوُعول العُصم عن قُذُفاته   وتُضحي ذراه بالسحاب كوافرا(٦٨)

فيكون شرحه؛ "أي: وإن حلّت بيوتي في أمنع المواضع وأبعدها عنك بحيث أنا آمن"، ويتوجّه الحديث إلى النعمان اللخمي، وهو الذي لم يقدر ذات يوم على تخطي حدوده الإقليمية في نجد، وهذا الوصف للطبيعة الجبلية المرتفعة، والذي يتوافق مع طبيعة جهات شمال خيبر وأطراف الحناكية، هي التي كان الجيش الغساني يستطيع اختراقها.

وحقيقة ما جاء في الديوان، فيما يخص النعمان اللخميّ: "النابغة... يأمن بأرضه...؛ لأنه لم يكن ليجهِّز النعمان إليه جيشا تعظم عليه فيه النفقة"(٦٩)، وإن كان الصواب أنه لم يكن بمستطيع فعل ذلك، على حين كان الغساسنة يستطيعون فعل ذلك، وقد فعلوه.

لم يكن النابغة هاربا إلا من الغساسنة، يقول:

لئن كنتَ قد بُلِّغت عني خيانة   لمبلغك الواشي أغشّ وأكذب
ولكنني كنتُ امرءا لي جانب   من الأرض فيه مستراد ومَذهَب

---

(٦٧) ديوان النابغة الذبياني، ص٤٠.
(٦٨) المصدر السابق، ص ص٦٩-٧٠.
(٦٩) المصدر نفسه، ص٢٩.

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم   أُحَكّم في أموالهم وأُقَرّب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم   فلم ترهم في شُكر ذلك أَذنبوا

ويعني بذلك، كما شرحه الديوان: "يصف نهوضه إلى الغسّانيين وتمكّنه فيهم... وكان قد حلّ بهم حين فرّ من النعمان، فأكرموه، وقرّبوا منزلته... قوله: كفعلك في قوم؛ أي: فعل بي الغسانيون ما أوجب لهم مدحي وثنائي كما فعلت أنت في قوم اصطنعتهم وأحسنت إليهم، فينبغي ألا تراني مذنبا في شكر ذلك للغسّانيين لاصطناعهم إلي، كما لا ترى من اصطنعته، فيشكرك، مذنبا في شكره لك"، وهذا تضارب واضح، فكيف يقبل أي ملك مثل هذا الثناء في أعدائه، ثم يتقبّل اعتذار من تحوم حوله الشبهات، والصراع السياسي بين المناذرة والغساسنة على أشدّه؟ وكيف ينسجم هذا مع ذلك الجو الرهيب الذي يعيشه في فترات هروبه، والذي قال عنه هنا:

هذا تضارب واضح، فكيف يقبل أي ملك مثل هذا الثناء في أعدائه؟!

فبتّ كأن العائدات فرشن لي   هَراسا به يُعلى فِراشي ويُقشَب(٧٠)

وهذا هو واقع حاله في كل اعتذاريّاته، كما في قوله، مما يمكن أن يكون جزءاً من هذه الأبيات، في أبيات أخرى منفصلة:

أتاني وعيد والتنائف دوننا   سخاويّه والغائط المتصوّب(٧١)

على أنه يمكن توجيه البيتين:

ولكنني كنتُ امرءا لي جانب   من الأرض فيه مستراد ومَذهَب
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم   أُحَكّم في أموالهم وأُقَرّب

---

(٧٠) المصدر نفسه، ص ص٧٢-٧٣. وانظر، ديوان النابغة، بتحقيق ابن عاشور، ص٥٥.

(٧١) ديوان النابغة، بتحقيق ابن عاشور، ص٦٠.

على النحو التالي: أنتم – الغسانيون – ملوك وإخوان... محلّ كون: "ملوك وإخوان...: بدلاً من مستراد ومذهب"(٧٢).

ذلك أنه في أثناء فراره لم يكن مستقرّ الحال، ناعم البال، بل كان مشتّتا، معذّبا، فلم يكن عند من يُفترَض أنه فرّ إليهم:

"ملوك وإخوان إذا ما لقيتهم   أحكّم في أموالهم وأقرّب"

ولو تمّ ذلك، لعنى الطمأنينة والرضا، وهو ضدّ ما تعكسه اعتذارياته من خوف وتوجّس، وألم، وقد بيّنه قوله:

فلا تتركنّي بالوعيد كأنّني   إلى الناس مطليّ به القار أجرب

وما هذا إلا كقوله: "وعيد أبي قابوس..."، وقوله:

"لكلَّفني ذنب امرئ وتركته   كذي العُرِّ يكوى غيره وهو راتع"

وهل هناك عذاب أشد من قوله:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي   على وعل في ذي المَطارة عاقل(٧٣)

وعلى هذا، فإن قصيدته البائيّة، المعدودة من اعتذاريّاته للنعمان ابن المنذر، هي في النعمان الغسّاني، والتي يقول فيها:

بأنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

والخبر الذي أورده ابن قتيبة عن اجتماعه بحسّان، لا يكون إلا في بلاط الغساسنة(٧٤). وكذلك، فإن ذكر "سلمى" في قوله:

بحمد ابن سلمى إذ شأتني منيّتي   ليالي رجّيتُ الفضولَ النوافعا(٧٥)

---

(٧٢) المصدر السابق، ص ٥٥. وانظر: الأصفهاني، الأغاني، ج١١، ص٣٥.

(٧٣) الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، ص٤.

(٧٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص ص ١٦٤-١٦٥. وانظر: ديوان النابغة، ص ص٧٢-٧٤.

(٧٥) ديوان النابغة الذبياني، ص١٦٤.

وبالرغم من أن "ابن سلمى" كنية اشتهر بها النعمان بن المنذر، فإنها لا تنصرف إلا للنعمان الغساني، وحقٌّ ما ذهب إليه نولدكه: "احتمال كون ابن سلمى أميراً من أمراء الغساسنة"(٧٦)؛ ليس على أنه احتمال، بل على أنه يقين وتأكيد، وقد مضى قول حسان: "وأنا الصقر عند باب ابن سلمى...".

وأما قوله:

وتُسقى إذا ما شئت غير مصرَّد بزوراء في حافاتها المسك كانع

فليس في النعمان بن المنذر، على أساس أن: "زوراء: هي دار بالحيرة، للنعمان"، وإنما معناها: "كأس مستطيلة من فضّة"(٧٧)، فهذا هو المناسب للمعنى.

وفي ضوء ذلك كله، فإن قول النابغة:

الواهب المئة المِعكاء زيَّنها سُعدان تُوضح في أدبارها اللِّبَد
والأدم قد خُيِّست فُتلا مرافقها مشدودة برحال الحِيرة الجُدد(٧٨)

لا يعني النعمان بن المنذر، وإنما يعني النعمان الغساني، أبا قابوس، فعطاء الرِّحال الحيريّة، غير ملزم ألا يكون إلا من ملوك الحيرة، فهذه بضاعة متداولة، كما أن "توضح" لا يلزم أن تكون في المناطق الخاضعة للمناذرة، وإنما هو اسم موضع في البلاد الخاضعة للغساسنة، كالسماوة مثلاً.

وما هذا إلا إشادة بكرم الممدوح الغساني، فهو يقول مثلاً، في مدح عمرو بن الحارث بن أبي شمر:

أثوى فأكرم في المثوى ومتّعني بجِلّة مئة ليست بأبكار(٧٩)

---

(٧٦) انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب (بيروت: دار العلم للملايين، ط أولى، ١٩٦٩م)، ج٣، ص٢٨٠.

(٧٧) ديوان النابغة الذبياني، ص٣٩.

(٧٨) المصدر السابق، ص٢٢.

(٧٩) المصدر نفسه، ص١٨٣.

وهذا هو الشماخ يذكر الرّحال الحيرية، وهو ليس في عصر المناذرة، يقول: يبتن بين شُعَب الحاريّات(٨٠)، وهذا هو النابغة يقول في رثاء النعمان الغسّانيّ، لا اللخميّ:

وإن تلادي إن ذكرتُ وشِكّتي   ومُهري وما ضمّت لدي الأنامل
حِباؤك والعيسُ العتاق كأنها   هِجان المَها تُحدى عليها الرحائل(٨١)

وما "الرحائل"؟ أليست "رحال الحيرة " تلك؟ وما "التلاد"؟ أليس ما قَدُم من أعطيات؟

ومن هنا، فإن قول بدر بن حذار:

قد كان وافد أقوام فجاء بهم   وانتاش عانيه من أهل ذي قار(٨٢)

ليس هو "ذو قار" المشهور، في جهات الكوفة، كما يتبادر إلى الذهن؛ ذلك أنه يشير هنا إلى فكّ أسارى فزارة، وهؤلاء وقعوا أسرى في يد غطفان، فالموضع في ديار غطفان، من نواحي الحَرّات، وفي جهات خيبر، وهذا يساعدنا على توجيه موقع "توضح" السالفة الذكر.

حروب الغساسنة مع ذبيان:

اتضح من واقع الحديث عن حمى "(ذو) أقر"، أن لا علاقة للمناذرة بمنطقة ذبيان على الإطلاق، وقبل الحديث عن حروبهم علينا ملاحظة قول يزيد بن عمرو بن الصعق:

وأي الناس أغدر من شآم   له صُردان منطَلِق اللسان

ففي الديوان: "الشآم: يريد منازل بني ذبيان مما يلي الشام، فنسبه إليها"(٨٣).

---

(٨٠) ديوان الشماخ، تحقيق صلاح الدين الهادي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧م)، ص٣٧٤.

(٨١) ديوان النابغة الذبياني، ص١١٩.

(٨٢) المصدر السابق، ص٨٠.

(٨٣) المصدر نفسه، ص١١٤.

ومعنى ذلك: أن ديار بني ذبيان هي المنطقة الموالية لهم من الجنوب الغربي؛ أي: بامتداد وادي السرحان جنوباً وشرق تيماء حتى أطراف حرة اثان وحرة خيبر، وتشمل الحائط "فدك"، والحوي، وما صالاها من أطرافها الشرقية بامتداد النقرة - الحناكية.

يقول الجاسر: "بلاد بني جذيمة، من بني مرة بن غطفان... في حرة فدك والحائط، وما حولها إلى ضغنها في عدنة"(٨٤).

وجاء في الديوان: "ركب إلى الحارث بن أبي شمر، ليكلمه في أسارى بني أسد وبني فزارة... وقد كان حصن بن حُذيفة أصاب في غسّان"، ويقول النابغة:

بأن حصنا وحيّا من بني أسد   قاموا فقالوا حِمانا غير مقروب

كما يقول:

وما بحصن نعاس إذ تؤرّقه   أصوات حي على الأمرار محروب

و"الأمرار"، كما جاء في الديوان: "الأمرار: مياه بلاد بني غطفان لبني فزارة" وهكذا، "الملح": ماء لبني فزارة، في المنطقة عينها.

إذن، هجم الحارث على هذه القبائل في عقر ديارهم، حتى لجأت إلى حرار قيس، التي تشمل منطقة الحرّات هذه باتجاه الحناكية:

فإذا وقيت بحمد الله شِرّتها   فانجي فَزار إلى الأطواد فاللوب(٨٥)

وجاء في الديوان أيضاً: "وقال أيضا في وقعة عمرو بن الحارث الأصغر الغساني ببني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان". ويقول النابغة:

وخلُّوا له ما بين الجِناب وعالج   فراق الخليط ذي الأذاة المُزايلِ(٨٦)

---

(٨٤) الجاسر، شمال المملكة، ج٣، ص١٢٦٨.

(٨٥) ديوان النابغة الذبياني، ص ص٥١-٥٢.

(٨٦) المصدر السابق، ص١٤٤. وانظر بقيّة القصيدة.

و"عالج" هو (النفود الكبير)، الأمر الذي يعني أن عمرا قدم من "الجولان"، مجتازاً النفود، ماراً بوادي السرحان، مخترقاً الجهراء "الجناب"، متّجهاً نحو ديار فزارة في الجهة الشرقية من ديارهم، حيثَ "أقر"، حمَى الغساسنة هنالك.

هذا فيما يخص أمراء الغساسنة مباشرة، أما فيما يخص قوّادهم، فلدينا قصائده في ابن الجلاح، وجاء في الديوان: "أغار النعمان بن الجُلاح الكلبي على بني ذبيان". ويقول النابغة:

أصاب بني غيظ فأضحوا عباده   وجللها نعمى على غير واحد

وبنو غيظ هؤلاء: هم رهط النابغة نفسه، فهم: غيظ بن مرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان(٨٧). وديار هؤلاء ليست من نجد، وإنما في أطراف الحجاز الشرقية، مما يلي حرّة اثنان.

وإزاء هذا كله، فإن هذه المنطقة معدودة من مناطق نفوذ الغساسنة، وتشكّل الحد الجنوبي الشرقي لإمارتهم، وما هو خارج عنها، فهو من مناطق نفوذ المناذرة، يقول النابغة مخاطبا يزيد بن عمرو بن الصَّعَق:

فإن يقدِر عليك أبو قُبَيس   تُمَطّ بك المعيشة في هوان

وذلك؛ لأنه يرى نفسه:

كأن التاج معصوبا عليه   لأذواد أُصِبن بذي أبان

وفي الديوان: "يزيد... أغار، فاستاق... عصافير كانت للنعمان بن المنذر ترعى بذي أبان" و"(ذو) أبان" هو "أبان" الأسمر، في القصيم، يقول يزيد:

فكيف ترى معاقبتي وسعيي   بأذواد القَصِيمة والقصيم(٨٨)

---

(٨٧) المصدر نفسه، ص١٣٩.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ص١١١-١١٣. وانظر بقيّة القصيدة، ص ص١٤١-١٤٨. والعصافير، إبل النعمان اللخمي، انظر: الأغاني، ج٩، ص١٦٥.

وهذه المنطقة خارج حدود الغساسنة، وتابعة لإمارة المناذرة، وهنا - حقّاً - النعمان بن المنذر، ملك الحيرة، وهو "أبو قُبيس"، ويأتي هذا التصغير دليلاً قاطعاً على النظرة الدونية للمناذرة، وعدم احترامهم عنده، ولم يلجأ إلى هذا التصغير - علاوة بطبيعة الحال على كون المنطقة خارج نفوذ الغساسنة - في أثناء ذكره للنعمان الغساني أبداً.

وبنو أسد هنا ليس كل بني أسد، فهم فرع منهم، ممن كان في صف فزارة، في منطقتهم، أما أولئك الذين في نطاق سيطرة المناذرة، فهم - وإن كانوا أبناء عمومتهم - فغير أولئك الذين وقعوا في أسر الغساسنة، ومن هنا كان خطأ أن يقول الدسوقي:

"وكان بنو أسد كذلك يناصرون ملوك الحيرة في حروبهم مع الغساسنة، فإذا وقع منهم في أسر غسان عدد، هب النابغة يدافع عنهم، ويتشفع"(٨٩) ذلك ما لا يكون، بل ضد علاقة النابغة الوطيدة بين أيٍّ من الطرفين؛ فهؤلاء فرع من بني أسد، ممن يقيمون مع فزارة خاصة، ولا علاقة لهم بالارتباط بالمناذرة، وهؤلاء أنفسهم هم الذين أراد عيينة بن حصن أن يقطع حلف فزارة معهم، فقال له النابغة:

ألكني يا عيين إليك قولا سأهديه إليك إليك عني
قوافي كالسِّلام إذا استمرت فليس يرد مَذهَبها التظني
بها أدين من يبغي أذاتي مداينة المداين فليدني
أتخذل ناصري وتُعِزّ عبسا أيربوع بن غيظٍ للمُعِنّ

وبعده:

إذا حاولت في بني أسد فجورا فإني لست منك ولست مني
فهم درعي التي استلأمت فيها ....(٩٠)

---

(٨٩) الدسوقي، النابغة الذبياني، ص١١٠. وهذا رأي شوقي ضيف أيضا، العصر الجاهلي (القاهرة: دار المعارف، ط الرابعة، ١٩٦٥م)، ص ص٢٦٧-٢٧٣، الذي أرجع غضب النعمان اللخمي لذلك.

(٩٠) ديوان النابغة الذبياني، ص ص ١٢٦ -١٢٧. وانظر: ص ص٨٢-٨٥.

فمع أنه يشمل عامة بني أسد، إلا أن أنصاره منهم هم جيرانه؛ فبنو أسد رحلت من منطقتها في جهات عفيف، وانتقلت إلى شمال الجزيرة حتى حدود العراق، ولم يبق في زمن النابغة عدد منهم كبير يحرص عليه النابغة هذا الحرص، في نصرة يربوع بن غيظ، إلا قليل منهم، هم أولئك الذين بقوا في ضرغد، و(ضرغط) من تلك الجهات، يقول عبيد:

لمن دمنة أقوت بجُوّة ضرغد   تلوح كعنوان الكتاب المجَدَّد(٩١)

وهي التي ذكرها النابغة، فقال:

لو عاينتك رماحنا بطُوالة   بالحَزورية أو بلابة ضرغد(٩٢)

ويحدد النابغة نفسه المنطقة التي يقف فيها هذا الفرع من أسد إلى جانب بني يربوع بن غيظ، رهط النابغة، فيقول:

حولي بنو دودان لا يعصونني   وبنو بغيض كلهم أنصاري
زيد بن زيد حاضر بعُراعر   وعلى كُنَيب مالك بن حِمار
وعلى الرُّميثة من سُكين حاضر   وعلى الدُّثينة من بني سيّار(٩٣)

فكل هذه المواضع تتجاور، وتتقارب، بحيث تكون في جهات ما ولي غرب النقرة في اتجاهين: شمالي نحو وادي الرمة، وجنوبي نحو الحناكية، وكلها لفزارة. و"بنو دودان" إشارة إلى بني أسد أولئك، فليس كل بني أسد حوله، وإلى جانبهم تقف فزارة، وهو لم يعدّد من

---

(٩١) ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصار (القاهرة: مط مصطفى البابي الحلبي، ط أولى، ١٩٥٧م)، ص٥٢. و"ضرغد": واد يقع في الجانب الشمالي الشرقي من (حرّة هتيم)، شمال الحائط، غرب حائل بمسافة حوالي ٢٠٠كم. انظر: الجاسر، شمال المملكة، ج٢، ص٨١٢.

(٩٢) ديوان النابغة الذبياني، ص٢٢٩.

(٩٣) المصدر السابق، ص ص٥٩. وانظر: ص ص ٦٠، ١٦٨.

عدّد من فزارة عبثاً، وإنما عدّدهم، فخرا بهم، دون عامة غطفان، وبذلك فهو يخصّ جزءاً من أسد، وإن كانت غطفان قبيلة، وأسد حلفاء لهم. وهذا واضح من قوله:

ليهنئ بني ذبيان أن بلادهم   خلت لهم من كل مولى وتابع
سوى أسد يحمونها كلّ شارق   بألفي كميّ ذي سلاح ودارع

فبنو ذبيان الذين اختلطوا بأسد، والذين تشاركهم أسد حماية أرضهم معهم هم - فيما يخص منطقة النابغة - جزء من أسد، وليس عامة أسد، فعامة أسد - في زمن النابغة - لم تعد تسكن هذه المنطقة، وإنما أخذت تزحف شمالاً.

وكما رأينا "ضرغد" في قول عبيد، نجد النابغة يضيف أيضا "عتائد" فيقول:

إذا نزلوا ذا ضرغد فعُتائدا   يغنّيهم فيها نقيقُ الضفادع(٩٤)

وفي ديوان زهير توضيح دقيق لعلاقة بني مرة بالمناذرة، وبيان لحدودهم، يقول:

ومن مثلُ حِصن في الحروب ومثلُه   لإنكار ضَيم أو لأمر يحاوله
أبى الضيم والنعمان يحرق نابَه   عليه فأفضى والسيوف معاقله
إذا حل أحياء الأحاليف حوله   بذي لجَب أصواته وصواهله
يُهدّ له ما بين رملة عالج   ومَن أهله بالغور زالت زلازله(٩٥)

فالحليفان: أسد وغطفان، ولا سيّما فزارة من غطفان، يصلِون في تقدمهم إلى النفود الكبير، فيما والى وادي السرحان، ويخشاهم من يكون في أطراف تهامة، مما يلي المدينة غرباً، والنعمان، وهو هنا

---

(٩٤) المصدر نفسه، ص٨٦.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ص١٤٣-١٤٤.

النعمان اللخمي، لم يستطع أن يتجاوز حدودهم، بينما رأينا الغساسنة يضربونهم في عُقر ديارهم، ولديهم حمى فيها، وهذا على خلاف ما يراه الراميني من أن النعمان هنا هو النعمان الغسانيّ(٩٦)، فالغساني كان يتقدّم، ويقهر أعداءه، بينما الذي كان يقف عاجزا عن التقدّم هو اللخميّ، ولم يكن يربط هؤلاء بالمناذرة حلف، وإنما كانوا منضوين تحت سيادة الغساسنة.

هذا على خلاف ما يراه الراميني من أن النعمان هنا هو النعمان الغسانيّ

ولو علم الراميني أين تقع "زبالة"، لتراجع عن ذلك التعميم في عمرو بن هند ذاك، ولا سيّما في قول زهير هذا، فحصين كان ينهزم أمام الغساسنة، إلا أنه كان يلاحق المناذرة حتى حدودهم، جاء في الديوان: "أقبل حصن بالحليفين: أسد وغطفان، حتى نزل زبالة، فصدّ عنه عمرو بن هند، وكَرِه قتاله"(٩٧).

و"زبالة" قريبة من الحيرة، داخل الحدود السياسية للمناذرة، بل في طرف حماهم، من حزن بني يربوع(٩٨).

ويقدّم زهير الحدود التي تشتمل عليها ديار غطفان، وفيهم بنو أسد، بطبيعة الحال، فيقول:

بأن بيوتنا بمحل حَجر   بكل قرارة منها نكون
إلى قلهى تكون الدار منا   إلى أكناف دُومة فالحَجون(٩٩)

وهو بهذا يبتعد كثيراً عن شمال المملكة العربية السعودية، ليكون في أطراف الحناكية الشرقية والغربية.

---

(٩٦) الراميني، عمرو بن هند، ص١٥١.

(٩٧) المصدر السابق، ص١٢٤.

(٩٨) انظر: ديوان لبيد، ص١٩٤.

(٩٩) ديوان النابغة الذبياني، ص١٨٤.

أما المناذرة، فخارج هذا النطاق، وتأتي سيطرتهم شرقها، كقول زهير:

لئن حللت بـ (جَـوّ) في بنـي أسـد   في دين عمرو وحالت بيننا فدك(١٠٠)

و"جَـوّ" هو الذي قـال عنه ابن بليـهـد: "صـواب الـرواية: لئن حللت بخَوّ...؛ وخَوّ: ماء... يقع شرق سميراء"(١٠١).

---

(١٠٠) المصدر السابق، ص١٨٣.

(١٠١) محمد بن عبدالله بن بليهد، صحيح الأخبار، (القاهرة: مط السنة المحمدية، ط الثانية، ١٩٥١م)، ج ١، ص١٢٩. ولا صحة لما يذهب إليه الراميني، عمرو بن هند..، ص ص١٤٤-٥٤، من أن شخصية عمرو بن هند في الشعر المتصل بالمناذرة شخصية ظهرت بعد النعمان بن المنذر اللخمي، في نهاية القرن السادس الميلادي، فأدرج في هذا موت طرفة، وقافيّة الممزّق العبدي...، وعلاقة طيّئ بالغساسنة، وهو يتعرّض إلى علاقة بني أسد بالمناذرة، وشاعرهم عبيد بهم أيضا، إلى غير ذلك من أسماء، ومن بينها عمرو بن كلثوم.

فما بنى عليه كان نتيجة تداخل الأسماء في الروايات، واختلاط التعريف بها في كتب الأنساب، ذلك أن شخصية عمرو بن هند اللخمي "مضرّط الحجارة"، شخصية تاريخية، ذاع صيتها، وتوطّدت في زمنها السيادة للحيرة، فقويت شوكتها، وكانت أغلب تلك الأحداث التي يبعدها الراميني عن عمرو بن هند، هذا قد وقعت في عهده، سواء من ناحية الوضع السياسي في الحيرة نفسها، أو من ناحية الصراع السياسي مع القبائل البدوية على امتداد منطقة نفوذ المناذرة التي تغطي مساحة شاسعة من شرقة العالية حتى نجران.

ويبقى تقسيمه الزمني لقول الشعر تقسيما افتراضيا، تقف ضده دلائل كثيرة، ففي الفترة الوسيطة التي يتحدّث عنها كان هناك شعر كثير، ولم تكن سلطة المناذرة إلا سلطة اسمية على هذه المناطق.

ولعل قول الطرماح؛ ديوان الطرماح، ص١٣٥، يخاطب الفرزدق، مشيرا إلى يوم "أوارة":

فيا قين هـل حُدِّثت يـوم ابـن مِلقَط   ويوميك لابن مُضَرِّط الحَجَر الصلد

يقنعنا بأن شخصية عمرو بن هند كانت بارزة في وسط الأحداث، وأن النعمان، أخاه، كان يحاول السيطرة، في عهده، على أجزاء من الحدود السياسية التابعة للغساسنة، فيلقى مقاومة عنيفة من ذبيان، وفي ذلك الزمن كانت بنو نهشل، من تميم، في الأطراف الشرقية من الحَرّات، قال الطرماح أيضا، ديوان الطرماح، ص١٣٤:

ونحن حصدنا يوم أحجار ضرغد   بقمـرة عنـز نهشـلا أيمـا حصد

وهذا دليل آخر على تبعيّة طيّئ للمناذرة.

وقال همام بن غالب الفرزدق، ديوان الفرزدق، تحقيق الصاوي، (القاهرة: مط الصاوي، د. ت)، ج٢، ص٨٨٣:

قـوم هـم قتلوا ابن هند عَنـوة   عمرا وهم قسطوا على النعمان

السبب الرئيس في اضطراب علاقة النعمان الغساني بالنابغة: تزييف الشعر:

لم يعد للنعمان بن المنذر الآن أية علاقة بالنابغة، وصلته الإنسانية والفنية بالغساسنة فقط، والنعمان في شعره هو النعمان بن الحارث.

يقول حمّود: "وإذا عدنا إلى شعر النابغة لا نجد صدى لهذه الحادثة في اعتذاريّاته، ولا نجد هجاء للذين أفسدوا ما بينه وبين النعمان سوى إشارته إلى الأقارع عامة وإلى واحد منهم بشكل خاص"(١٠٢).

يقول النابغة، في عمرو بن الحارث الأصغر الغساني:

كليني لِهَمّ يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض   وليس الذي يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازبَ همّه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ويرسم النابغة هنا جوا يطبق فيه الحزن الشديد عليه، ويرهقه القلق إرهاقاً عميقاً، فهو لا ينام، ولا يقرّ له قرار؛ إنه يعاني من تفكير مضطرب بحاله، يمضي الليل بطيئاً وئيداً، وهو ينظر فيما حوله وحيداً، فلا يجد حلاّ لما هو فيه من واقع.

وهذه حالةُ مَن فَقَد شيئاً عزيزاً عليه فجأة، فلا يدري كيف يسترجعه، أو مَن أحدقت به المصائب والآلام، فيعجز عن مقاومتها، أو التكيّف معها.

وبعد ذلك يقول:

عليّ لِعَمرو نعمة بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب
حلفت يمينا غير ذي مثنوية   ولا علم إلا حُسنُ ظن بصاحب
لئن كان للقبرين قبر بجلق   وقبر بصيداء الذي عند حارب(١٠٣)

---

(١٠٢) حمّود، دواوين العرب، ديوان النابغة، ص١٤.

(١٠٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ص٤٠-٤١.

وهنا نلحظ في قوله: (عليّ لِعمرو نعمة بعد نعمة)، (لوالده...) دليلاً على أن النابغة كان متواصلا مع الغساسنة، أبا عن جدّ، دونما انقطاع، وأنهم أصحاب الفضل عليه، وأنه كان مخلصاً لهم جمعا، طيلة صحبته الطويلة لهم، لم يعلموا منه ما يؤاخذونه عليه، وكانوا هم أنفسهم يبادلونه هذه المشاعر.

ويأتي هذا من خلال القسم بشيء مقدّس لدى الغساسنة، وهو قبور آبائهم؛ فعلاقته بالغساسنة لم تنحصر ابتداء من عمرو بن الحارث وحتى أخيه النعمان، وإنما اتصلت بأبيهم الحارث الذي مدحه بأكثر من قصيدة.

فإذا انتقلنا إلى بقيّة قصائده، وجدناه يقول:

كتمتكَ ليلا بالجَمومين ساهرا   وهمّين هَما مستكنا وظاهرا
أحاديث نفس تشتكي ما يريبها   وورد هموم لن يجدن مصادرا
تكلفني أن يُغفِل الدهرُ همَّها   وهل وجدت قبلي على الدهر قادرا

وهذا هو الجو السابق، وقد بيّن موضع معاناته بأنه كان بـ"الجموم"، وهو في جهات مكة، على سفوح حرّة كشب الشرقية(١٠٤)، فلا هو في وسط دياره، بين أهله، ولا هو عند الغساسنة ولا المناذرة.

إنه بعيد عن الاثنين، كبعده السابق في "راكس" و"الضواجع" و"برد"؛ أي: هو هارب من الغساسنة، لا المناذرة، وواضح أنه كان متوجّها للحجِّ، فهو في الشهور الحرم، فهذا من طريق الحجّ إلى مكّة، وبذلك تكون رواية البيت الآتي "محرِما"، وليس "مجرما"، هي المفضلة.

---

(١٠٤) عاتق بن غيث البلادي، معجم معالم الحجاز (مكة: دار مكة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج٢، ص ص١٧٧-١٧٦٨. وانظر: ياقوت، معجم البلدان، "الجموم". وثنّى "الجموم" للوزن.

وإن كانت قراءة "مجرما" تعني نفي تهمة الجُرم عن نفسه. على أنه يقول في القصيدة:

رأيتك ترعاني بعين بصيرة   وتبعث حراسا علي وناظرا

وهنا يتجلى لنا السبب في ذلك السهر، إنه الخوف من الملك الذي يلاحقه. ويلجأ إلى القسَم، مشيراً ضمناً إلى موضع مقدّس عند العرب، وهو مكة فيقول:

فآليت لا آتيك إن جئتُ محرما/ مجرما   ولا أبتغي جارا سواك مجاورا
فأهلي فداءٌ لامرئ إن أتيتُه   تَقبَّلَ معروفي وسَدّ المفاقرا
سأَكعم كلبي أن يَريبك نبحه   وإن كنتُ أرعى مسحلانَ فحامرا

وكما جاء في شرح الديوان: "لا آتيك في شهور الحُرُم من خوفك، ولكني آتيك في شهور الحِلّ، وأنا آمن بأمانك... قوله: سأكعم كلبي...؛ أي: سأكف عنك لساني وهجوي... أذاي". وهذا وعد من الشاعر بالعودة تلقائيا إلى الملك.

على أن النابغة حين يضرب المثل بنباح الكلب:

سأَكعم كلبي أن يَرِيبك نبحه   وإن كنتُ أرعى مسحلانَ فحامرا

لا يعني أنه قال هجاء في الملك، نقله له خصومه، الذين قال عنهم:

وذلك من قول أتاك أقوله   ومِن دسّ أعدائي إليك المآبرا(١٠٥)

وإنما يعني - كما سيتبيّن - أن آخرين زيّفوا شعرا أثار حفيظة الملك، وضَرْب هذا المثَل؛ يعني: شدة نفي ما ينسب إليه، وإبعاد الشبهة عنه.

---

(١٠٥) ديوان النابغة الذبياني، ص ص٦٧-٦٩.

ويستمر النابغة في اعتذارياته للملك الغساني، النعمان، الذي خُلِط بينه وبين النعمان اللخميّ، فقال:

ما قلتُ من سيئ مما أُتيتَ به إذا فلا رفعت سوطي إلي يدي
إلا مقالة أقوام شُقيتُ بها كانت مقالتهم قَرعا على الكبد
إذا فعاقبني ربي معاقبة قرّت بها أعين من يأتيك بالفنَد
أُنبئت أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد
مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أُثمّر من مال ومن ولد
لا تقذفني بركن لا كِفاء له وإن تأثّفك الأعداء بالرِّفَد

ثم يقول:

ها إنّ ذي عِذرةٌ إلا تكن نفعت فإن صاحبها مشاركُ النَّكد(١٠٦)

وهذه أبيات تلحّ إلحاحاً شديداً على الوشاية والنميمة، كما تبيّن حقيقة يجب ألا نغفلها، وهي أن النابغة لم يكن مستعداً أصلاً نفسياً أو أخلاقياً أن يداجي في علاقاته، إذ كان عليه أن يبرّئ نفسه مما ينسب إليه، أو قاله في حقيقة الأمر، فنقل عنه، أو زيد عليه، وكان عليه أن يعود ثانية إلى أولياء نعمته الغساسنة، وتأتي الإشادة في اعتذاريّاته بـ"النعمان" وأفعاله، دليلا قاطعا على أنه يتحدّث عن تلك الشخصية التي مدحها، قبل أن يحصل بينهما ما يكدّر صفو علاقاتهما، فهو - من بعدُ - النعمان الغسانيّ.

ومهما قلّبنا الديوان، فلن نجد الشاعر إلا يعزف على الوتر نفسه، وبالطريقة نفسها، فيقول:

أتاك بقول لم أكن لأقوله ولو كُبلَت في ساعديّ الجوامع
حلفت فلم أترك لنفسك رِيبةً وهل يأثَمن ذو إمَّة وهو طائع

---

(١٠٦) ديوان النابغة، بتحقيق الحتي، ص ص ٥٦-٥٩.

بمصطحبات من لَصاف وثَبرة يزرن إلالا سيرهن التدافع
سَماما تُباري الريح خُوصا عيونها لهن رذايا بالطريق ودائع
عليهن شعث عامدون لحجّهم فهن كأطراف الحني خواضع(١٠٧)

وهذا القول – كما هو واضح – وشاية ونميمة، والقسم مصحوب دوماً بجو مقدّس.

مدح النابغة النعمان بن الحارث الغساني بقصيدته اللاميّة، فقال:

أمن ظلامة الدمن البوالي بمرفض الحبي إلى وعال

وفيها يتردد صوت النابغة في اعتذاريّاته، والذي يتناغم بعد ذلك مع كل قصائده ابتداء بالبائية: "كليني لهمّ.....".

أما لماذا هناك عمرو بن الحارث، وهنا النعمان، فإن النابغة الذي اتصل مبكّراً بعمرو بن الحارث كان يقف إلى جانبه أخوه النعمان، الذي كان الأقرب إليه شخصيا، فكان أن شملهما بالاعتذار.

ولم يكن بوسع النابغة اللجوء إلى أحد، بل كان عليه أن يجد ما يبرّئ ساحته من تلك التهم بما يشيعه من اعتذاريّات؛ ليعود ثانية إلى مليكه، فبعد أن عرض جوّا شبيها بتلك الأجواء التي يشيعها في اعتذاريّاته، قال:

أغيرك معقلا أبغي وحصنا فأعيتني المعاقل والحصون(١٠٨)

ولو كان الملك اللخمي هو الذي يطارده، للجأ إلى الغساسنة، ونسي الأمر بعد ذلك، غير أن الذي يطارده هو الملك الغساني النعمان، وهو الذي سيكون في قبضته ذات يوم.

ثم إنه إذا كان له مجال للهرب والإحساس بالأمن، فلماذا هذا الإلحاح على التبرئة من التهمة، بحيث تضيق عليه الأرض بما رحبت؟

---

(١٠٧) ديوان النابغة، ص ص٣٥–٣٦.

(١٠٨) ديوان النابغة الذبياني، ص ص١٤٩–١٥٢.

ولبيان ذلك التوافق في المشاعر التي تخالج النابغة، نجده يقول في نكبة بني أسد على يد النعمان الغسانيّ:

لم يبق غير طريد غير منفلت   ومُوثَق في حبال القِدّ مسلوب(١٠٩)

هذا عن بني أسد، أما عن نفسه، فيقول:

إما عُصيت فإني غير منفلت   مني اللِّصاب فجنبا حرة النار(١١٠)

إنه الرعب الذي يبثّه الجيش الغساني المتكاتف والموحّد، وبيان للقدرة على الملاحقة والإيقاع بالخصوم.

الأقارع:

وحتى الآن لا يوجد هناك سبب مباشر لهذه الجفوة التي حدثت بين الملك والشاعر، والتي دفعت بالشاعر إلى التخفي والخوف، إنه يقول:

أتاك بقول هلهل النَّسج كاذب   ولم يأت بالحق الذي هو ناصع
أتاك بقول لم أكن لأقوله   ولو كُبِلَت في ساعديّ الجوامع(١١١)

إذن، هنا "قول هلهل النَّسج كاذب"، إنه قول يحمل صفتين مغايرتين لما هو معروف عن شعر النابغة وهما: ضعف البناء، وعدم إحكامه، ومغايرته موضوعيا لما يحمله شعره من أفكار، تتمثّل في الهجاء الشخصي.

---

(١٠٩) المصدر نفسه، ص٥٢. وكما لحظنا من قبلُ كيف يكيّف النابغة موادَّه الشعرية؛ لتتلاءم مع الجو العام في علاقته بالغساسنة، مثل ذكره:"توضح" و"الرحال الحيريّة"، فإنه هنا يذكر قسما ذا علاقة بنفسيّته، إنه يقول:

بمصطحبات من لَصاف وثَبرة   يزرن إلالا سيرهن التدافع

وهذا طريق الحجّ إلى مكة في الوثنية، مارّا بالحرّات، في ديار قيس، و"اللصاف" و"ثبرة" في ديارهم، وليستا المشهورتين في طريق الحجّ البصريّ - المكيّ، فلم يكن هذا الطريق مسلوكا إلى مكة في الجاهلية، ولا دخل للمناذرة فيه. انظر: موسوعة مواطن القبائل -النابغة الذبياني (تحت الإعداد)، لصاحب البحث.

(١١٠) ديوان النابغة الذبياني، ص٧٦.

(١١١) المصدر السابق، ص٣٥.

وهاتان الصفتان هما اللتان يحاول بيانهما في دفاعه عن نفسه، فيقول:

مـا قلتُ من سـيئ مما أُتيتَ به   إذا فـلا رفعت سـوطي إلـي يدي
إلا مـقـالـة أقـوام شُـقـيتُ بهـا   كانت مقالتهم قَرعا علـى الكبد

وهو يعرّف أصحاب هذا القول حين يشير إليهم بضمير الغياب هنا، كما أنه يركّز على أحدهم حين يقول:

لكلفـتـني ذنب امـرئ وتركـتـه   كذي العُرّ يُكوى غيره وهو راتع(١١٢)

بل هو يعرّفهم جميعا، فيقول:

لعـمـري ومـا عـمـري علي بهـيّن   لـقـد نطقت بطـلا علـي الأقـارع
أقـارع عـوف لا أحـاول غـيـرها   وجوه قرود تبتغي من تجادع(١١٣)

وهو يعيد أسباب هذا العداء إلى الحسد والحقد، فيقول:

فإن كنتَ لا ذو الضِّغن عني مكذّب   ولا حَلِفي على البـراءة نـافع(١١٤)

الأقارع: أقارع عوف، ويأتي تعريفهم على أنهم: "بنو قريع: بطن من بني سعد، وهم الأقارع الذين هجاهم النابغة"(١١٥).

والمفترض أن يكون هؤلاء في بلاط المناذرة، لا الغساسنة؛ لأنهم من تميم، ومع أن علقمة بن عبدة الشاعر - وهو من تميم - كان موجودا ذات يوم في بلاط الغساسنة(١١٦)، فهناك احتمالان:

---

(١١٢) المصدر نفسه، ص٣٧.
(١١٣) المصدر نفسه، ص٣٥.
(١١٤) المصدر نفسه، ص٣٧.
(١١٥) أبو بكر، محمد بن الحسن بن دريد، الاشتقاق، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩م)، ص٢٣٩.
(١١٦) الأصفهاني، الأغاني، ج١٥، ص١٢٢.

الاحتمال الأول:

الأقارع: أقارع عوف، ليس بالضرورة أن يكونوا من تميم، وإنما من أولئك الذين كانوا يوغرون صدر النعمان الغساني ضده، من حاشية النعمان، الذين كانت كثرتهم من كلب، يقول النابغة:

شكرتُ لك النعمى وأثنيتُ جاهدا وعطَّلتُ أعراض العُبَيد بن عامر(١١٧)

فهو هنا يعرّض تعريضا حادا ببني العُبَيد، من بني عامر بن عوف، وهم من كلب؛ فالأقارع من عوف، هم من هؤلاء، وقوله هذا يكشف عن خصومة شخصية عنيفة بين الطرفين، فما الذي دفعه إلى هذا القول؟

ويأتي إيضاح هذا في شرح ابن عاشور: "غزا النعمان بن الجُلاح بني مرّة؛ بعثه النعمان بن الحارث الغساني، فظفر، وسبي نساء من بني مرة، فيهم عقرب بنت النابغة، فلما انتمت إلى أبيها، قال: إن ذلك رجل له بنا حرمة، وإنه لمدّاح، فخلاّها، وخلّى من معها... وعطّلتُ أعراض العبيد بن عامر، أراد: جعلتُ أعراضهم عاطلة عن الشكر والمدح"(١١٨).

ولم يأت هذا الشرح في تحقيق أبي الفضل إبراهيم، ولا شك أن ربط هذا القول بمدح النابغة النعمان بن الجُلاح كان ربطاً موفّقاً جداً، وفي مكانه المناسب جدا، إلا أن السؤال هو: لماذا صرَف المدح عن هؤلاء؟ ولماذا كان الشاعر حسّاساً، متأثّراً شديد التأثُّر من بني العُبيد، وهم أبناء عمومة ابن الجُلاح؟ إن التفسير الواضح في مثل هذه المواقف الآن أن بني العبيد هؤلاء اتّخذوا موقفاً مناوئاً من النابغة، واعترضوا على كبيرهم، النعمان، في تصرّفه ذاك.

---

(١١٧) ديوان النابغة الذبياني، ص١٧٥.

(١١٨) المصدر السابق، ص١١٢.

فكان أن أجابهم النعمان جواباً دبلوماسياً: "إن ذلك رجل له بنا حرمة، وإنه لمدّاح" وبطبيعة الحال، فلم يأت ذلك الاعتراض من فراغ، فلابد أن له خلفية سابقة، بحيث كان هؤلاء أعداءً، كما وصفهم.

وإذا عدنا للقصيدة التي مدح فيها ابن الجُلاح، وجدناه يقول:

فسكَّنتَ نفسي بعدما طار روحُها   وألبستني نعمى ولستُ بشاهد
وكنتُ امرءا لا أمدح الدهر سوقة   فلستُ على خير أتاك بحاسد
سبقتَ الرجال الباهشين إلى العُلا   كسبق الجواد اصطاد قبل الطوارد

وتفسير قوله: "وكنت امرءا لا أمدح الدهر سوقة"، في الديوان هو: "إنما أمدح الملوك مثلك؛ والسوقة دون الملك الرئيس... وقد قيل:

إنه امتنّ عليه بذلك، يريد بمدحه إياه، إلا أنه ليس بملك، إنما هو سيِّد قومه، وأحد عُمّال الملك، فهو أحد السوقة، وعِيب عليه ذلك"(١١٩)، فما معنى هذا، سواء حسب الجزء الأول من التفسير، أو حسب الجزء الثاني منه؟

ألا يعني أنه يعرّض بمن قال عنهم: (وعطلتُ أعراض العُبَيد بن عامر؟)، وهو ما يتضمّنه قوله الآخر أيضا:

سبقتَ الرجال الباهشين إلى العُلا   كسبق الجواد اصطاد قبل الطوارد

وألا يعني قوله: (فلستُ على خير أتاك بحاسد) أن النابغة - الشاعر الفنّان - لم يكن لينطلق إلا من صدى ذاته، فينطق كما تملي عليه ردة انفعاله وجيشانه، دون التفكير والتبصرة، وفي عقله الباطن يتراءى أولئك الأعداء من أبناء عمومة ابن الجُلاح، وأن النابغة، وإن مدح ابن الجلاح ذلك المدح، فهو إنما يميّزه عن غيره، وهو يقصد ذوي قرباه: "العُبَيد بن عامر"؟

---

(١١٩) المصدر نفسه، ص١٤٠.

والظاهر أن موقف بني العبيد، من أسارى فزارة وأسد، وفيهم ابنة النابغة، كان موقفا عدائياً؛ حسبما يمكن فهمه من قوله:

فسكَّنْتَ نفسي بعدما طار روحُها وألبستني نعمى ولستُ بشاهد

فهناك جدل حاد بين القائد، وعسكره، الذين يشكّل أبناء عمومته - كما هو معتاد في الحروب القبلية، العمود الفقري للجيش - انتهى باتّخاذ قرار بإطلاق سراحهم جميعاً، بالرغم منهم.

وليس بمستغرب أن توجد مثل هذه الأجواء في البلاطات، حيث التنافس، والتحاسد، والتناجش، وفي التاريخ ما تكثر شواهده على ذلك، والتي من أشهرها المتنبي وسيف الدولة، ممّا أدى إلى هروب المتنبي، فلم يعد ثانية إلى سيف الدولة!

أما اسم "الأقارع"، الذي فهموه على أن "الأقارع"، من بني قريع: بطن من بني سعد، فليس صحيحاً، فليس لبني سعد علاقة ببلاط الغساسنة - حسب التوجيه الآن - وصلتهم بالمناذرة فقط، وما "الأقارع" إلا صفة تشويهية لبني العُبيد بن عامر بن عوف، من كلب، وهو جمع "أقرع"، وليس "قريع: بطن من بني سعد"، وما هذه الصفة إلا كقوله فيهم: "وجوه قرود"، والقرد أقرع، وليست تلك الصفة صفة عارضة كـ"أصلع".

ولم يكن النابغة بعاجز أن يأتي بالأصل "بني قريع" في خطابه، ولولا هذا اللبس، لما خرج الحديث إلى المناذرة أصلاً. وهنا يكون التوجّه إلى جمع "قريع" على "الأقارع".

ومع أنهم جعلوا "بني قريع" من خاصة رجالات بلاط المناذرة، فإن "بني قريع"، من سكنة اليمامة(١٢٠)، ومنهم الشاعر المخضرم،

---

(١٢٠) انظر: أبا محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م)، ص٢٢٠.

المخبّل السعدي(١٢١)، وكان هؤلاء بعيدين عن بلاط الحيرة، مع أنهم سَمَّوا من خصوم النابغة: مرّة بن سعد بن قريع السعدي، إلى جانب عبدالقيس بن خفاف التميمي، ونسبوا إليهما هجاء في النعمان اللخمي على لسان النابغة. أما جمع "الأقارع" في تميم، فجاء في قول الصَّلَتان العبدي، الشاعر الأموي:

ألا إنما تحظى كليب بشعرها   وبالمجد تحظى نهشل والأقارع(١٢٢)

ويقصد بذلك: الأقرع بن حابس وأخاه، مَرثَد، وهما اللذان ذكرهما الفرزدق في قوله:

فإنك واجدٌ دوني صَعودا   جراثيمَ الأقارع والحُتات(١٢٣)

ومثله قال جرير:

إذا طرب الحمام حمام نجد   نعى جار الأقارع والحُتات(١٢٤)

كما قال:

ونحن نَفَرنا حاجبا مجدَ قومه   وما نال عمرو مجدنا والأقارع(١٢٥)

وذكر العباس بن مرداس مفرده، على أنه "الأقرع"، فقال، يشير بذلك إلى الأقرع بن حابس:

أتجعل نهبي ونهب العُبَيـ   ـد بين عيينة والأقرع(١٢٦)

---

(١٢١) أبو عبدالله محمد بن سلاّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٨م)، ص١١٩.

(١٢٢) المصدر السابق، ص٣٤٣.

(١٢٣) أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور، اللسان (بيروت: دار صادر، د. ت) "قرع". وانظر: ديوان الفرزدق ج١، ص ص٦٧، ١٢٩، ٢٠٦؛ ج٢، ص ص ٥٠٢، ٥٢٥، ٦٣٣، ٧٠١، ٨٥٠، ٨٦٢-٨٦٣.

(١٢٤) جرير بن عطية، ديوان جرير، تحقيق محمد إسماعيل الصاوي (بيروت: دار مكتبة الحياة، د. ت)، ص٨٤.

(١٢٥) المصدر السابق، ص٣٧٢. وانظر: ص ص٢٤٥، ٤٧٠، ٤٨٤.

(١٢٦) ابن دريد، الاشتقاق، ص٣١٠.

فـ "الأقارع" جمع، مفرده "أقرع"، وكل ذلك في بني مجاشع، من تميم(١٢٧)، وليس من بني قريع، من عوف بن كعب، من تميم أيضاً.

والآن، فمن الواضح أن مردّ الخطأ جاء من تعريف: "المنخّل بن عُبَيد بن عامر اليشكري" الذي جعلوا بينه وبين النابغة خصومة(١٢٨)، ولم توجد مثل هذه الخصومة، وإنما الخصومة مع أولئك الذين اختلط نسبهم بنسب المنخل، فهذا يشكري، من بكر، وبنو قريع من تميم، وبنو عوف من بني العُبَيد بن عامر، من كلب، وهؤلاء هم "الأقارع" صفة، لا نسباً.

الاحتمال الثاني:

"بنو قريع: بطن من بني سعد، وهم الأقارع الذين هجاهم النابغة"، وإذ تبيّن أنه لا يمكن أن يكون هؤلاء في بلاط المناذرة، وأن النابغة لم يتّصل أصلاً بالمناذرة، فإن هؤلاء كانوا في بلاط الغساسنة، وكانوا يقومون بالدور نفسه المفترض أن بني العُبَيد قاموا به، وكانوا على اتصال مباشر بالغساسنة، بل من المقرَّبين - كما بنو العُبَيد - بالنعمان الغساني، قال البلاذري:

"قريع بن عوف... وأمهم ماويّة بنت حبيب بن عمرو بن كاهل بن أسلم... بن رُفَيدة بن ثور بن كلب"(١٢٩). فهناك صلة نسب بين بني قريع، والرفيدات من كلب، أنصار الغساسنة، وعادة ما تؤدي القرابة، الخؤولة هنا، دورا مهما في توثيق العلاقات القبلية والسياسية.

---

(١٢٧) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٢٣٠.

(١٢٨) الأصفهاني، الأغاني، ج١١، ص١٣.

(١٢٩) أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف (تميم)، تحقيق محمد فردوس العظم (دمشق: دار اليقظة، ٢٠٠٠م)، ج١١، ص٤٤٧-٤٤٨.

والراجح - إن كان هؤلاء حقيقة من تميم - أنهم مالوا إلى الغساسنة، فأصبحوا في بلاطهم، وهو ما يعنيه قوله، معرّضاً بهم، ومحاولاً الإيقاع بهم:

كفعلك في قوم أراك اصطفيتهم   ولم ترهم في شكر ذلك أذنبوا(١٣٠)

ولا مقارنة لحاله بحالهم، بمعنى أنه كان مع الغساسنة، ثم ها هو يعود إلى المناذرة؛ لأن المقارنة لا تجوز من ناحية أن بني قريع لم يكونوا مع الغساسنة، ثم عادوا إلى المناذرة، بل كانوا - حسب هذا التوجيه - مع المناذرة منذ البدء.

ومن ناحية أخرى، فهو كان يعيش التّيه والتشرّد، وإنما يعني: اجعلني كأولئك الذين أمّنتهم مع أنهم ما زالوا على ولاء لغيرك، أما أنا فما زلت مواليا لك.

وفي ضوء هذه العلاقة يمكن النظر في تلك الصفة التي أطلقها النابغة "الأقارع"، على أنها نسبة أيضاً، فها هو الزبرقان يهجو المخبّل، فيقول:

وأنتم بني القرعاء جاءت بأقرع   لئام مساعيه إماء حلائله(١٣١)

فالزبرقان يقصد المعنيين: الصفة: أقرع، هجاء، والنسبة أيضاً.

وبهذا، تتوجّه التهمة إلى مرة بن ربيعة بن عوف بن كعب القريعي الذي قال فيه النابغة:

أتوعد عبدا لم يخنك أمانة   وتترك عبدا ظالما وهو ضالع(١٣٢)

---

(١٣٠) ديوان النابغة الذبياني، ص ٧٣. وقارنه بياقوت، معجم البلدان، "عوير".

(١٣١) ابن يحيى، أنساب الأشراف (تميم)، ج١١، ص٤٤٩.

(١٣٢) ديوان النابغة الذبياني، ص٣٨. وانظر: ص٢٤٦.

وقد أخطأ فوزي أمين في فهم "الأقارع"، عندما جعلهم من بني مرّة، فخلط بين هؤلاء ومن هم من بني مرّة حقيقة، في قوله:

نصحت بني عوف فلم يتقبّلوا وصاتي ولم تنجح لديهم وسائلي(١٣٣)

إن شيئاً مهما للغاية في تبيان العلاقة بين "الأقارع" في بني تميم، أولئك الذين يأتي الحديث عنهم في تفسير قول النابغة، وهو أن جريراً الذي كان يبحث عن مثالب بني مجاشع، والفرزدق الذي يعتزّ بمآثر قومه، لم يتعرّضا ألبتة لهؤلاء، فلماذا أغفلاهما، وكان كل فريق يمكن أن يستثمر الواقعة لصالحه؟ ذلك أن الفرزدق يقول:

أتهجو بالأقارع وابن ليلى وصعصعة الذي غَمَر البحارا(١٣٤)

فجرير تعرّض لـ"الأقارع" من تميم حقيقة، بيد أنه لم يدخل أولئك - ولا خصمه أيضا - في تنازعهما على المواقف! بل أين الحطيئة من هذا كله، وهو يتعرّض للزبرقان(١٣٥). وهذا أمر يستبعد أيّة صلة بين الجماعتين.

ولمزيد من الإقناع بأن النابغة إنما كان مختصا بالغساسنة، لا بالمناذرة، وأن الصورة لم تكن واضحة لدى بعض القدماء، أن ابن الكلبي رأى أن النابغة مدح المنذر بن المنذر بن امرئ القيس، حين غزا الشام، فقال:

ومغزاه قبائل قائظات على الذهيوط في لجِب لُهام

---

(١٣٣) أمين فوزي، دراسات في الشعر الجاهلي (الإسكندرية: دار المعرفة، ٢٠٠٠م)، ص١٤٦. وكان فوزي أمين في عجلة من أمره؛ ولهذا وقع في خطأ كبير عندما جعل قصيدته الرائية في النعمان بن المنذر، وكانت أخطاؤه شنيعة في فهم أقواله، ص ص١١٥، ١٢٤-١٥٤، إضافة إلى توجيهاته للمواقع والأحداث التاريخية.

(١٣٤) ديوان الفرزدق، ج ٢، ص ٤٤٥.

(١٣٥) انظر: ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان أمين طه (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط أولى، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م)، ص ص٩٧-٩٨، ١٠٢، ١٠٨، ١١٧، ١٣٣، ١٣٨، ١٨٤، ٢٢٠، ٢٦٧، ٢٨٣-٢٨٤، ٢٩٥.

غير أن البكري يعترض على هذا، ويبيّن حقيقة الأمر، فيقول:"يعني عمرو بن الحارث الغساني، في غزوته العراق؛ والدليل على ذلك قوله:

ودوّخت العراق فكل قصر   يجلّل خندق منه وحام"(١٣٦)

وهكذا، تبيّن أن الخلاف خلاف شخصي، تنافسي - قَبَلي إن شئنا- غير أنه ليس خلافاً سياسياً، لوروده على الغساسنة، وأنه قام سفيراً لقومه في بلاط الغساسنة، كما يرى شوقي ضيف(١٣٧).

وكان إيليا حاوي مصيباً في تأكيد وجهة النظر هذه حين قال وإنْ ساير الرأي العام حول اتصاله بالمناذرة، وحول "بنو قريع": "حديث النابغة ليس حديث المعتذر بقدر ما هو حديث الموتور الذي ينهض للأخذ بثأره"(١٣٨)، ولولا ملازمة حاوي لذلك الرأي العام، ولو تحرّر من هذه الضبابيّة التي تطبق على الأعمال الأدبية، لاستطاع بيسر أن يخرج من قوله: "إن الناظرَ في شعر النابغة يجد أنه مال غاية الميل إلى تعظيم الغساسنة في قتالهم وجيشهم، كما يجد الشاعر يلجأ إليهم مراراً لفكّ الأسرى، وطلب العفو لمن تواقع من قبيلته معهم، ولم تظهر له شفاعة لأحد منهم في المناذرة. وكانت ديار بني ذبيان فضلا عن ذلك، متوزّعة في الشمال الغربي لشبه الجزيرة العربية، قريبة من الغساسنة؛ مما جعل صلتهم تتواثق والغساسنة، اختلافاً وائتلافاً. يسوقنا إلى الاعتقاد بأنه ليس من المستساغ القول بأنه لازم المناذرة قبلهم، وأحرى به أن يُقبل عليهم من دون سواهم لقرب الصلة ولطبيعة العلاقة بينهم وبين قبيلته"(١٣٩). والأمر الطبيعي والمستساغ، هو حصر النابغة في سلك غسان، ائتلافاً واتفاقاً، كما قبيلته ائتلافاً واتفاقاً، واستبعاد أية صلة له بالمناذرة من قبلُ ومن بعدُ، أما اللف

---

(١٣٦) البكري، معجم ما استعجم، "ذهيوط".

(١٣٧) ضيف، العصر الجاهلي، ص٢٧٢.

(١٣٨) إيليا حاوي، النابغة سياسته وفنه (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٠م)، ص١٥٨.

(١٣٩) المرجع السابق، ص٨٩.

والدوران والتعليل والتضليل، فهذه هي الطبيعة الإخبارية التي جرّته حتى إلى قبول قصة المتجرّدة والنعمان بن المنذر(١٤٠).

ومن ثم يتورّط حاوي في تعريف "حِجر" في قول النابغة، حسبما رسم حاوي الحاء بالفتح:

وهم قتلوا الطائي بـ (الحَجر) عنوة   أبا جابر واستنكحوا أمّ جابر

فيعرّفه بأنه: "الحَجر: بفتح الحاء، مدينة اليمامة"(١٤١)، وتكون الخلاصة أن الشعر الموضوع على لسان النابغة كان موجّها للنعمان الغساني، وأنّ فهم قوله:

حبوت لها غسّان إذ كنت لاحقا   بقومي وإذ أعيت علي مذاهبي

ليس كما جاء في الديوان: "يعني أنه كان هارباً من النعمان، فضاقت عليه طرقه، وانسدت مسالكه، كأنه يريد أنه رآهم أهلا للمدح، وأحقّ به من غيرهم، في حال أمنه وخوفه" فقوله: (إذ كنت لاحقا)، (بقومي وإذ أعيت علي مذاهبي)(١٤٢) هو وقت هروبه من وجه النعمان الغساني، لا اللخمي؛ وهو يقول هذا بعد عودته وأمنه، فقد كانت علاقته بالغساسنة أقدم من هذا الوقت، تبيّنت في قوله:

الخلاصة أن الشعر الموضوع على لسان النابغة كان موجّها للنعمان الغساني

علي لعمرو نعمة بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب(١٤٣)

---

(١٤٠) المرجع نفسه، ص ص١٣٤-١٣٥.

(١٤١) المرجع نفسه، ص٢٤. وهذا من مزالق الدراسات المعاصرة، التي لا تتأنى، إذ لا علاقة لليمامة بالحروب بين الغساسنة وعذرة؛ فديار عذرة قاعدتها "الحِجر"، كما في ضبط سائر روايات الديوان، غير أن ديوان النابغة، ص ١٠٠، يجعل "حِجر" - بكسر الحاء - هي "حجر: اليمامة"، وهذا خطأ، وهو الخطأ نفسه الذي تكرّر، ص٨١، وجعلَ الحاء مفتوحة هذه المرة، خطأ آخر.

(١٤٢) ديوان النابغة الذبياني، ص٤٩.

(١٤٣) المصدر السابق، ص٢٢٩.

لم يهرب النابغة من النعمان اللخميّ، لينتقل إلى النعمان الغسانيّ، ولم يهرب من النعمان الغسانيّ إلا ليتوه في الأرض، شقيّا بفراره، حتى عاد يحمل همومه وأحزانه، كان منذ البدء في صفّ الغساسنة، قبل تولّي النعمان بن المنذر مقاليد الحكم في الحيرة، يدل على هذا قوله في مدح الحارث الغسانيّ:

والله والله لنعم الفتى الـ   ـأعرج لا النِّكسُ ولا الخاملُ
الحاربُ الوافرُ والجابرُ الـ   ـمحروبُ والمُرجلُ والحامل
والطاعن الطعنة يوم الوغى   ينهلُ منها الأَسَل الناهل
والقائل القولَ الذي مثلُه   يَنبُتُ فيه الزمنُ الماحل
والغافرُ الذنبِ لأهل الحجا   والقاطعُ الأقران والواصل(١٤٤)

ولس بين أيدينا شعر يمكن الاطمئنان إليه، لتصنيفه على أنه الشعر المنسوب إليه، سوى الرضا بحكم النابغة نفسه.

والواضح أن مجلس النعمان الغساني كان يضم أعداء لفزارة وأسد، ومثّلهم النابغة، فذلك الصوت المتشكي والمتفجّع، نجد صداه في قوله موجّها الحديث للنعمان، وهو هنا بنص الخبر: النعمان الغسانيّ:

إني كأني لدى النعمان خبّره   بعض الأَوُدّ حديثا غير مكذوب
بأن حصنًا وحيًا من بني أسد   ....(١٤٥)

فالنعمان يصدّق هؤلاء المقرّبين منه، والموثوقين عنده، ويقبل كلامهم الذي يصفه النابغة بأنه باطل.

وها قد وضحت الحقيقة جلية، فالنعمان في شعر النابغة هو النعمان الغسانيّ، وهو يتلقى الأخبار من جهات، يعلم النابغة أنها تريد الإضرار به وبقبيلته وأنصارها.

---

(١٤٤) المصدر نفسه، ص١٦٧.

(١٤٥) المصدر نفسه، ص٤٩. "عرجلة" تعني: الرَّجّالة.

وحتى الآن يمكن قبول كل هذه التوجيهات، والاقتناع بمصداقيّة نتائجها، ومنها مشكلة تسمية النابغة أعداءه بأنهم: الأقارع: أقارع عوف. على أنه يمكن فضّ كل الإشكالات، إذا ربطنا الشعر بالغساسنة فقط، فقوله في عمرو بن الحارث الغساني مثلاً:

لقد تلفَّفَ لي عمرو على حَنَق   عن قول عَرجَلة ليسوا بأخيار
فجئت عمرا على ما كان من أَضَم   وما استجرتُ بغير الله من جار(١٤٦)

فقوله: (قول عرجلة ليسوا بأخيار) هو المنطق نفسه الذي ساد في اعتذاريّته. وهذا تأكيد آخر على طبيعة مجلس الغساسنة، وموقف بعض جلسائه من النابغة.

أما أن ننكر علاقة "الأقارع" بالنابغة كلية، كما فعل شوقي ضيف(١٤٧)، فإن الأبيات التي ذُكِروا فيها هي من نسيج شعر النابغة، وهي لسان حاله، تتردّد أصداء تأثيرها في كلّ اعتذاريّاته.

وأخيراً، فإذا أردنا أن نجد صورة للمناذرة في الشعر القديم، فلنبحث عنها في شعر الشعراء الموالين للغساسنة حقيقة، أو الخاضعين لهم، رمزيا على أقل تقدير، مثلما هو واضح في شعر لبيد عن النعمان بن المنذر(١٤٨).

وعلينا قبل هذا كله أن نضع في أذهاننا أن انتقال النابغة من المناذرة للغساسنة - بكل هذه البساطة - أمر لا تحتمله الظروف السياسية والعسكرية التي كانت على أشدها بين القوّتين المتصارعتين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن مجرّد الانتقال والبقاء إلى جانب الأعداء هو في العرف السياسي، وعلى مدار التاريخ، خيانة عظمى، عقوبتها الموت، لا العفو والعطاء.

---

(١٤٦) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

(١٤٧) ضيف، العصر الجاهلي، ص ص٢٧٨-٢٧٩.

(١٤٨) انظر: ديوان لبيد، ص ص٢٥٢-٢٦٦.

وصف المتجرّدة:

ربطت الأحداث بين النابغة وقصيدته الدالية التي يقول فيها:

أمِن آل مية رائح أو مغتد   عجلان ذا زاد وغيرَ مزوَّد
أَفِدَ الترحُّل غير أن ركابنا   لما تَزُل برحالنا وكَأَنْ قَد
زعم البوارح بأن رحلتنا غدا   وبذاك خبرنا الغُداف الأسود

إلى أن يقول:

سقط النصيف ولم تُرد إسقاطه   فتناولته واتقتنا باليد...

وهذه أبيات محكمة، متّسقة مع شعره وأسلوبه، كما تتسق مع الجو العام الشائع في وصف الظعائن والرحيل.

ثم تأتي أبيات جنسية خالصة: فإذا/ وإذا...إلخ(١٤٩)، والنابغة يقسم أنه لم يقل شيئاً بذيئاً، إنه يقسم بكل مقدسات العرب، مما يعتقده مليكه، وطابع شخصيته وسنه لا يسمحان له بمثل هذا القول المفضوح، كما أنه يخرج نافراً عن جو القصيدة الجاهلية المعهودة، والذي نجده في رائيّته:

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار   ماذا تحيون من نؤي وأحجار(١٥٠)

وفي ميميّته:

أتاركةٌ تدلّلها قَطام   وضنّا بالتحية والسلام(١٥١)

---

(١٤٩) ديوان النابغة الذبياني، ص ص ٨٩-٩٣.

(١٥٠) المصدر السابق، ص ص ٩٦-٩٧.

(١٥١) المصدر نفسه، ص ص ١٣٠-١٣٣ وانظر: الدسوقي، النابغة، ص ص١٧٦-١٧٧؛ أحمد الربيعي، ملكة وشاعران: المتجردة (بغداد: مط الأمة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ص ص٤٧-٦٦.

ولا يمكن أن يقبل الملك مثل تلك الإضافات في جو القصيدة، ولا يمكن أن يزيّف الشاعر مشاعره، ليأتي بشعر استجابة لطلب، فهي أبيات موضوعة متأخرة، ولا علاقة لما راج عن قضية المتجردة بالخلاف بين النابغة والملك أيا كان، ولن يجرؤ أحد على أن ينشد الملك هذا الوصف في زوجه، حتى عن طريق النميمة، وإنما الخلاف كان شخصياً، غيرة وحسداً وانتقاماً، أكّد هذا النابغة في كل مرة يعتذر فيها، وقد أوضح أنهم قالوا شعراً أسمعوه الملك، هجاء فيه، وقدحا في شخصيته، وشتان بين الأسلوبين، وهو الأمر الذي اكتشفه الملك، فعفا عن شاعره، وكان على أولئك الذي درسوا النابغة، ولا سيما العشماوي، أن يلتفت إلى هذا بدلاً من ذلك التيه والتشتت الذهني.

بيد أن هناك ملحوظة حول هذا الشعر الذي قاله النابغة في الغساسنة، فالشطي يقول، وهو بصدد الشك في نسبة اسم النابغة إلى بيته: "فقد نبغت لنا..."، وإرجاع قول الشعر إلى عصر مبكّر من حياة النابغة: "ويؤكّد هذه الوجهة ما يراه الأستاذ عمر الدسوقي من أنه في كثير من القصائد نرى حرارة الشباب وثورته، وعاطفته وميعته وقوته، وقد رأينا أن النابغة مدح عمرو بن هند سنة ٥٥٤م...، بل يقال: إنه اتصل بالمنذر الثالث والد عمرو بن هند في أخريات أيامه... فيكون قد ظل وألا يجد المرء شاهداً على حال النابغة في قصة إسلام كعب بن زهير؟ يترنم على قيثارة الشعر ما يقرب من خمسين عاماً، وهي مدة ليست بالقصيرة". وهو يعود، فينقل عنه: "ولذلك لا نرى هذا الرأي في أنه قال الشعر وهو كبير وأنه لم يكن له في شبابه شيء منه"(١٥٢). ولهذا الرأي شقّان:

---

(١٥٢) عبدالفتاح عبدالمحسن الشطي، شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي (القاهرة: دار قباء، ١٩٩٨م)، ص ص١٦٦-١٦٧.

الشّق الأول:

أن دراسة الأدب العربي لم تبرح مكانها، ينقل الآخر عن الأول، فتتراكم المادّة، ولا خلاص، ولا سيّما مع الاسترسال في التعبير والإنشائيّة المتحكّمة في الكتابة النقدية؛ ذلك - وباستثناء معنى النابغة - فإن أيَّ قارئ للشعر الجاهلي وحتى العصر الأموي لن يجد إلا شعر شيوخ منهكين، يبكون الماضي ويتحسّرون عليه، ذلك الماضي المتمثِّل في الصبا والشباب، وهما المفردتان الغالبتان عند الحديث عن الأطلال والظعائن، ولن يبصر في الأطلال إلا صورة ذلك الشيخ المتحطِّم، إنه حاضر بائس، في مقابل ماض زاه مشرق، وتظهر المرأة في وسط هذين الجوّين، شابّة دائماً، جميلة دًائمًا، حيَويّة دائما وأبداً، إنها صورة نفسه التي كانت، وهو يحلم بها دائماً وأبداً، فالشاعر يواجه الموت في أطلاله.

الشق الثاني:

أن ما قاله الدسوقي، ونقله عنه الشطي، لا يحمل في أيّ منه "حرارة الشباب وثورته..."، بل على العكس تماما، فكل قصيدة من قصائده تحمل الإحباط واليأس؛ غرَّهما وصف الظعائن، وما دريَا أن وصف الظعائن ليس الآن، وإنما كان قبل سنين خلت، وأن الشاعر ينظر وراءه، يلاحق الحلم، وتحدق به الأطلال (الشيخوخة - الموت)(١٥٣). كل هذا الشعر شعر قاله: "وهو كبير، وأنه لم يكن له في شبابه شيء منه".

---

(١٥٣) انظر حول هذا: ج. ك. فاديه، الغزل عند العرب، ترجمة إبراهيم الكيلاني (بغداد: وزارة الثقافة والإرشاد، ط الثانية، ١٩٨٥م)، ص ص٣٧-١٢٣؛ مصطفى ناصف، دراسة الأدب (بيروت: دار الأندلس، ط الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ص٢٥٣-٢٧٣. والواقع أن طه حسين، في الأدب الجاهلي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٢٧م)، ص ص ٢٩٩-٣٠٢، كان مضطربا في حديثه عن النابغة، ولم يهتد إلى الحقيقة فيه.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٢٧هـ، السنة الثانية والثلاثون

وكل هذا الشعر في الغساسنة، وليس للمناذرة شيء منه، وإرجاعهما قول الشعر إلى المنذر الثالث وعمرو بن هند، يتضارب مع ترديد النابغة الشعر في الغساسنة، في زمنيهما، زمن الحارث الأكبر الغساني(١٥٤)؛ مما يحيل القضيّة برمتها إلى اجتهاد غير موفّق، وإن كان هذا - مع الأسف الشديد - تحت ستار الرسائل العلمية والبحث العلمي.

فإذا كان الإحساس واحداً، وإذا كان التفكير واحداً، ألا يتدخّل النقد لقول كلمة فصل في هذه المشاعر الواحدة؟ ألسنا أمام شخصية واحدة، رثت الحارث الغساني، وامتدت في صحبة أبنائه من بعده، ولم يكن للنعمان اللخمي دخل في هذا كله؟

---

(١٥٤) يتحدث ناصف، دراسة الأدب، عن رثاء النابغة للنعمان بن الحارث الغساني، فيربط بين الصور والفرار من الموت، ص٢٤٩، ويأتي في ص٢٧٠، ويقول عن مطوّلته الدالية الاعتذارية للنعمان بن المنذر، كما يرى: "النابغة لا يعنيه عاطفة ذاتية، ولا ينسب بالمرأة، ولا يعنيه أن يصوّر حبا، وإنما يعنيه الزمن أو الفناء الذي أخنى على دار مية بالعلياء والسند، هذه الدار التي خلت من سكانها من زمن طويل".